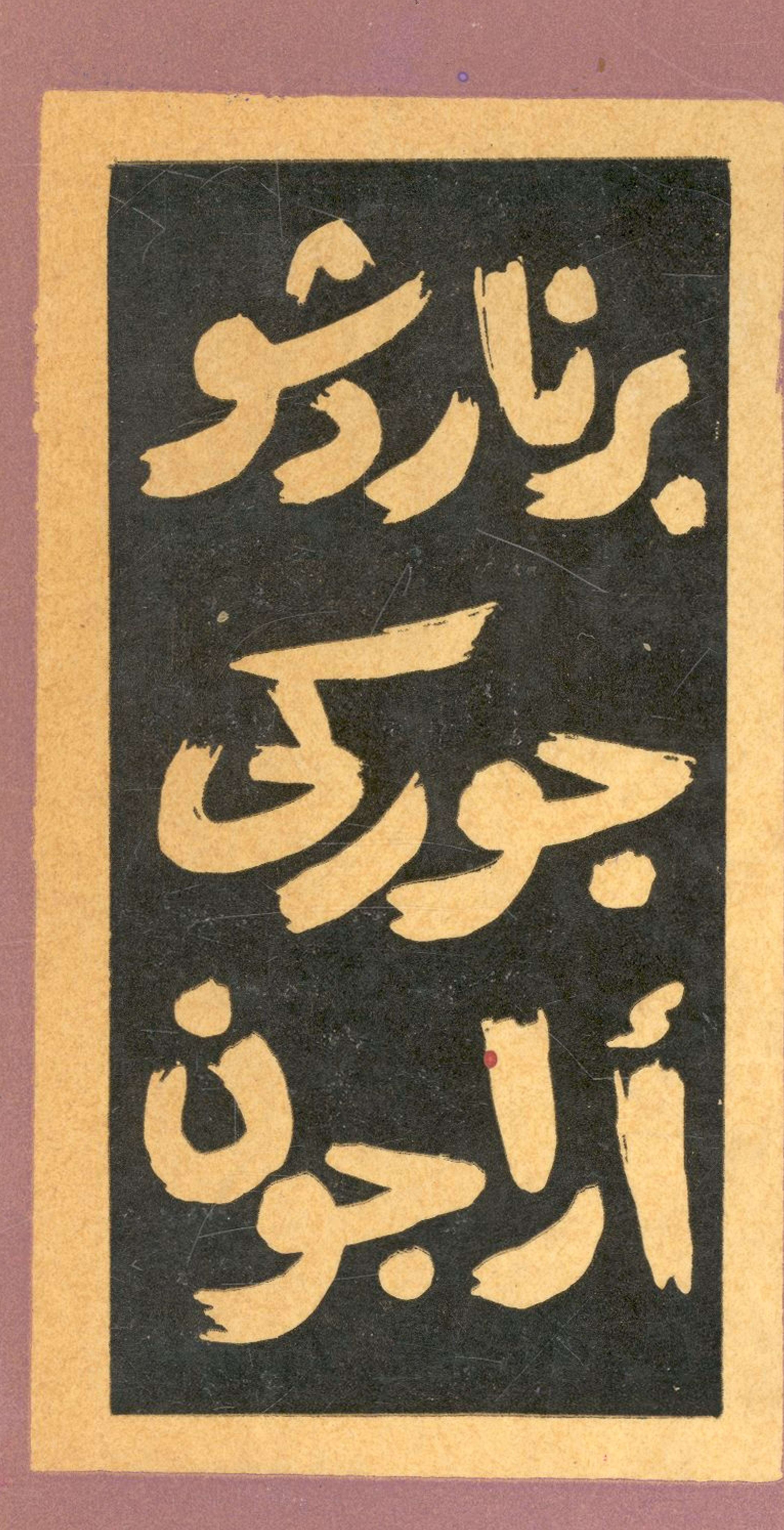
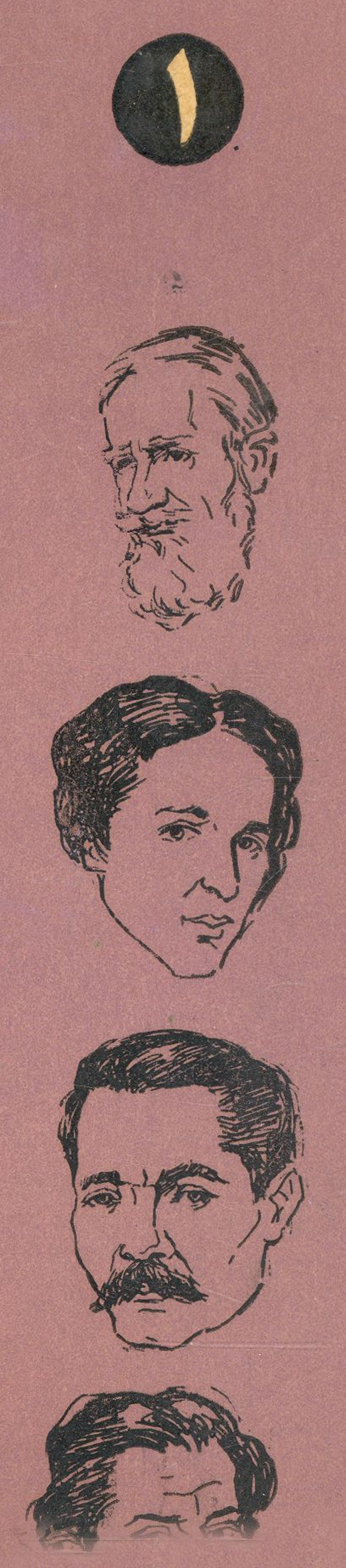
رواد الفكر

١





نعمان عاشور

إهـــــــــداء ٢٠٠٧

الأستاذ / عبد الغنى أبو العينين
جمهورية مصر العربية

نعمان عاشور

برنارد شو
جورج
الاجوبة

دار الفكر

الغــــلاف للفنان

«عبد المنعم القصاص»

صـــــدر عن دار الفكر ١٩٥٦
دار الهنا للطباعة والنشر

من دار الفكر..

سأسمح لنفسي أن أنقل بعض العبارات من خطاب للصديق « محمد ابراهيم دكروب » من رابطة الكتاب العرب والمحرر بالزميلة « الثقافة الوطنية » ...

« لقد قررنا اصدار عدد خاص عن أديبنا الكبير «عمر فاخوري» بمناسبة الذكرى العاشرة لوفاته ... ولم أحاول أن أطلب شيئا من مصر لهذا العدد ، لأنني أعلم أن الكثيرين من الكتاب عندكم لايعرفون شيئا عن عمر فاخوري ، كما لايعرفون الكثير عن كبار الكتاب فى لبنان وسوريا ... بينما نحن هنا ــ ولا فخر ــ نعرف أشياء كثيرة عن كل كاتب معروف عندكم . ولا أدرى سبب هذه «القوقعية» من كتابكم ، وليس من المقبول أبدا استمرارها ، خاصة بالنسبة لكتاب الأدب الجديد .

قد يقال أننى أطلق الاحكام هكذا . أتمنى أن أكون مخطئا ، ولكنى أعرف الكثير منكم ــ شخصيا وبالمراسلة ــ وأقرأ الصحف والابحاث التى تنشر ، فأشعر أن كتاب مصر بالاجمال ، واعذرونى على هذه الوقاحة ــ لايكادون يعرفون غير كتاب .. مصر !

ولاشك أن « دار الفكر » بدأت تلعب دورا هاما فى هذا السبيل وهذا مايبشر بالخير ... »

لقد سمحت لنفسى أن أنقل عتاب أو نداء الزميل « دكروب » لأنى أحس وأومن بأنه نداء صادق ومخلص ، ولأنى أحس وأومن بأن « دار الفكر » التى أعلنت منذ كتابها الأول أن من بين أهدافها احياء التراث الفكرى المصرى والعربى والعالمى مازالت مقصرة فى تحقيق هذا الهدف ...

ودار الفكر ليست المطبعةالتى تجمع وترص فيها الحروف ،

وليست الجدران الاربعة التى نتحمل مواصلة العمل بينها ليل نهار لندفع للجماهير المتعطشة الى الثقافة النظيفة بالكتب .. دار الفكر هى حلقة الاتصال والتفاعل بين الجماهير والمشتغلين فى الحقل الثقافى وهى أساسا رجال الفكر وأى تقصير منهم فى أداء واجباتهم سينعكس عليها ويظهر فى انتاجها ...

لقد حققنا حتى اليوم بعض النتائج ـ نشرنا انتاج عدد من الكتاب والشعراء الجدد الذين لم ير انتاجهم النور من قبل ـ ربطنا الحركة الثقافية فى مصر بالحركة الثقافية فى السودان والبلدان العربية ـ أخرجنا انتاج عدد من زملائنا الأردنيين والعراقيين والسودانيين ـ ساهمنا مع حركة الترجمة النشطة فى لبنان وسوريا ، وأخرجنا كبداية ، الترجمة العربية العربية لكتاب «مشاكل الأدب والفن» لقائد الصين « ماوتسى تونج » ـ وضعنا الشعر فى مكانه الطبيعى كفن فى طليعة المعركة ـ ونشرنا عددا من البحوث والدراسات السياسية والأدبية والفنية : (الدولار يحكم بريطانيا ـ السينما والشعب ـ حقيقة حركة السلام ـ ماذا تريد أمريكا للشرق الأوسط ـ باندونج) ودفعنا للقراء بكتاب نعتز بنشره ويعتبر من الأسس التى ستقوم عليها دراسة تراثنا « فنون الأدب الشعبى » ...

وبالرغم مما بذلناه من جهد فاننا نعترف بأن كل هذا لايكفى ـ فالصيحات مازالت تتعالى فى كل وقت ومن الناس البسطاء الذين يحبون الثقافة النظيفة ـ الثقافة الموضوعية التى تتطور ـ الثقافة التى تفتح آفاق الحياة أمام الانسان وتمهده للمستقبل المشرق . هذه الصيحات تطالب بالحاح : « نريد بحوثا أدبية واقتصادية وعلمية ـ الا يمكن أن نعرف بافلوف وميتشورين ؟ ـ نريد دراسات عن واقعنا وتاريخنا ـ نريد أن تقدموا لنا رجال الفكر فى مصر والبلدان العربية والعالم كله ـ نريد أن تكتبوا لنا عن التطورات السياسية والاقتصادية والعلمية التى حدثت فى العالم وجعلت مصيره فى يد الانسان ـ لاتصدقوا مثل منتجى الافلام الرخيصة أننا نسعى ، حين نشترى الكتاب ، وراء تسلية سهلة تقتل الوقت ... »

وها نحن نسجل ونردد هذه الصيحات ونعتبرها صادرة منا الى جميع من يعملون فى الحقل الثقافى هنا وفى السودان والبلدان العربية ..

وها نحن ننقل نداء الزميل « دكروب » لنعترف بتقصيرنا ولنضيف الى كلماته أن بعض المثقفين عندنا قد جرفهم التيار وتركوا ميدان البحث والانتاج الذى يحتاج الى جهد ومثابرة وعمل متصل ودراسة أمينة لواقعنا ، الى المقال الصحفى،وأصبحت التلخيصات والتعليقات وللأسف القصائد والقصص السريعة المصنوعة تشغلهم عن تأليف الكتاب أو البحث العميق ..

ونسمع منهم حين ننقل اليهم صيحات الجماهير « ومن يهتم بنشر مثل هذه البحوث ؟ وهل ستجد من يقرؤها ؟ هل يمكن أن تحصل من ورائها على الجزاء الموازى للجهد الذى سنبذله ؟ ولقمة العيش التى ترغمنا على كتابة المقالات والقصص والبحوث والنقد وحتى القصائد .. بالسرعة التى تنقدوننا من أجلها » ؟..

اننا نعرف الظروف الشاقة التى يعيش فيها رجال الفكر هنا لأننا نواجه نفس الظروف ــ وقد واجه أولئك الذين خلدت أعمالهم والذين نسعى اليوم لاحياء التراث الذى خلقوه،ظروفاأقسى منها ــ لقد أعطى بعضهم حياته فى سبيل مواقفه وحتى تحيا أفكاره ــ لقد صارعوا الظروف وآمنوا بالمستقبل فعجز التيار عن أن يجرفهم ودفعوا هم مصير الانسان الى الامام ..

واذا كنا نبدأ اليوم مجموعة رواد الفكر بدراسات الزميل « نعمان عاشور » عن ــ برنارد شو ، وجوركى ، واراجون ــ فاننا نأمل أن نحقق فى القريب أمنية الزميل دكروب وأن ننشر دراسات كاملة عن عمر فاخورى وفرح أنطون وغيرهما من أعلام الفكر العربى وأن تدفع هذه المجموعة الكتاب الى الاهتمام بالدراسات والبحوث استجابة لمطالب الجماهير ..

« ابراهيم عبد الحليم »

« هذه الصفحات طويتها من زمن . . حتى لقيت صديق الطفولة . . وصاحب « أيام الطفولة » فاذا به، كعادتى به . . دافق الحماس ، قوى الايمان . . راسخ اليقين بأن الفكر هو قوام صراعنا الذى نعيشه ، ومصب منهلنا الذى نستقى منه على طول الطريق . . وكان أن اخترت هذه الصفحات لتكون جهدى الأول مع « دار الفكر » .

« نعمان عاشور »

كلمة قصيرة

هذه ليست صوراً، وليست تراجم وليست مقالات، ليست شيئاً من هذا الذى اصطلح عليه النقاد لأن يكون لونا من الألوان التى تصب فيها المنتجات الأدبية. ومع ذلك فبعضها يعتبر صورة، وبعضها يعتبر ترجمة والبعض يبدو مقالا أو كالمقال. وقد كتبتها فى هذه الأشكال عن غير قصد منى وبإملاء من مادة موضوعاتها.

ولا أحب أن أثقل على قارئها بأكثر مما فيها، فالواقع أن مايعنينى منها، لا يتجاوز مادتها. أما الأسلوب وأما الشكل الفنى وأما التعبير اللغوى، فكلها مقومات لا تفضل عندى أهمية الموضوع وقيمته وصلاحية مادته للكتابة. وإنى لأعتقد جازما أننا لسنا فى حاجة إلى الأسلوب، ولسنا فى حاجة إلى الفصاحة، بل ولسنا فى حاجة أولية إلى الفن ذاته قدر مانحن فى حاجة وأشد حاجة إلى الثقافة والمعرفة والفكر. وهذا القول ربما أسخط على غير واحد من الفصحاء اللغويين، وما أكثرهم عندنا، ناهيك عن رهبان الفن وعباده. لكنى من أجل ذلك أقوله فى إصرار وعناد من

يرى الحقيقة ولا يتردد فى الجهر بها ، وسط بيئة ضاعت الحقيقة بين جنباتها كما تضيع حبة رمل فى فيافى الصحراء الافريقية . . .

* * *

أنا إذاً لا أقدم فناً . وإنما أقدم فهماً . وهذا الفهم كلفنى الكثير . ولكنه جاء مع ذلك طبيعياً ومتمشياً مع تقديرى للقيم الانسانية الصحيحة التى أعتز بها وأقدسها . وأهم ما فى هذا الكتاب ، إذا قدر له أن يكون كتاباً ، هو موضوعه . وقد أخذت هذا الموضوع من قراءاتى . فمادته ليست من صنعى ، ولكنها من صنع أفذاذ كبار ، تطفلت على كتاباتهم ولم أتطاول عليها . وقد يصعب أن أدعى الإبانة ، غير أنى لا أستطيع أن أنكر على نفسى مشقة الدرس والتمحيص وإعمال الفكر . .

مايو ١٩٥٦

« م . ع »

تمهيد

قد يكون من المغالاة، الادعاء بأن أدب أى عصر من العصور هو المرآة التى تنعكس عليها صورة هذا العصر . ولكن مما لاشك فيه، أن الاتجاهات الاجتماعية العامة السائدة، لابد وأن تفصح عن نفسها إفصاحاً جلياً واضحاً فى كل عمل فنى أنبته هذا العصر. ولا يعنى ذلك حتما وبالضرورة أن يكون الأديب هو البوق الناطق للقوى الاجتماعية التى تصطرع فى زمانه.. فالواقع أن تفاعل الأديب مع عصره، يفرض عليه أن يوائم بين شخصه كفرد، يعبر بانتاجه عن نفسه فى المجتمع الذى يعيش فيه أصدق تعبير فردى ، وبين شخصه كفنان يعبر إنتاجه عن المجتمع الذى يعيش فيه، أصدق تعبير اجتماعى؛ بحيث يستحيل الفصل بين المدلول الفردى والمدلول الاجتماعى ، وبمعنى أصح المدلول الانسانى ، لانتاجه الفنى .

ذلك أنه ليس هناك أدب خالص مجرد. أى غايته الأدب لوجه الأدب وحده . ولا أدب فردى مطلق يهدف إلى التعبير عن الذات، بل ليس هناك أدب يمكن أن تكون غايته تصوير النفس الانسانية والتعبير عن جوهرها، وفهم الطبيعة البشرية والكشف عن مكنونها فى داخل الفراغ الأجوف الذى يسمونه الروح. كذلك ليس هناك أدب إنسانى بالمعنى الغامض الذى يباعد بين الإنسان وبين المجتمع الذى يعيش فيه. إذ لا وجود لانسان يعيش وحده جامدا بغرائزه وأوهامه ، ويحيا منفرداً مع نفسه بأحاسيسه وأحلامه . فالانسان كائن اجتماعى يعيش مع الآخرين داخل مجتمع إنسانى

حتى يتطـور ويتشكل ويتغير على مر السنين وتوالى الأحقـاب . والأدب هو ما يخلقه هذا الكائن الاجتماعى من نتاج فى حياته داخل ذلك المجتمع ، فيزيد وعيه بوجوده ، ويحكم صلاته بالناس فيه ، ويمكنه من السيطرة على قوى المجتمع وتسخيرها لخيره وصالحه ، تماما مثلما يزيد العلم الإنسان وعياً بالطبيعة وبقوانين الوجود ويمكنه من السيطرة عليها وتسخيرها لخيره وصالحه .

والأديب هو طليعة البشر ، فى وعيه بسير المجتمع الانسانى الذى يعيش فيه، وهو أقدرهم فى إدراكه للحقائق التى تسير هذا المجتمع، وفى تصويرة وتعبيره عن دلالتها وأثرها ،. ويكون ذلك أكثر مايكون ، حينما يتناقض سير المجتمع تناقضاً كليا مع نظرة الأديب إلى الحياة ، ويتضارب تضاربا تاما مع إنسانيته ، فيثيرها ويستثيرها .

وقد كان المجتمع البريطـانى ولا زال حتى وقتنا الحاضر، يمثل الصورة الواضحة المعـالم لتطور المجتمع الحديث فى شتى مظاهرة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية . ولعل متابعة ألوان الصراع الذى ساير التطور الاجتماعى فى بريطانيا منذ كانت أول دولة قامت فيها الديمقراطية الحديثة وهدم فيها الإقطاع ، ثم أول دولة شهدت الانقلاب الصناعى وأسبق دولة نمت فيها الرأسمالية الحديثة، وبالتالى أولى الدول الاستعمارية، والدولة التى تجمع بين الاستعمار والدعوة إلى الاشتراكـية . . لعل متابعة ألوان الصراع الأدبى فى المجتمع البريطانى تمدنا بخير مايوضح حقيقة العلاقة بين الفن والحياة ...



خيم على بريطانيا خلال الثمان سنوات التى تلت معركة واترلو (بعد عام ١٨١٥) وكانت هذه هى السنوات التى ظهرت أثناءها اعظم مؤلفات شعراء الجيل الثانى من المدرسة الرومانسية . . بيرون وشيللى وكيتس ، خيم على الجزيرة الساكنة ظلال صراع سياسى عنيف . صراع ولدته الهبة التى صحبت إقرار مبادىء الحرية والإخاء والمساواة، بعد الثورة الفرنسية ، كأساس لقيام الديمقراطية المنشودة التى سالت من أجلها الدماء أنهاراً فى فرنسا، والتى أدت إلى خلع الملك والمناداة بالجمورية على عهد كروموبل فى انجلترا من قبل ذلك بقرن ونيف ..

وما لبث هذا التطور الذى صحبه ظهور الآله فى بداية القرن التاسع عشر ، أن أسفر عن وجود طبقة وليدة يقوم على أكتافها

بناء الكيان الاجتماعي الجديد لمن قوضوا الإقطاع باسم الديمقراطية واسم الشعب ، وهم الحكام الجدد ملاك الآلات والمصانع . وتحتم لكى تعيش الديمقراطية أن لا تزهق روح الحرية . فتحرم على عبيد الآله من الصناع ، ولولا أقبلت العاصفة الاستبداديه العاتية على مثوى الأحرار فى جزيرة كرومويل الهادئة .

وكان بيرون وشيلى وكيتس ، أسبق من تنبأ بهبوب العاصفة فوقفوا ينصحون الشعب بأن يهيء أسلحته للدفاع عن حريته ، بينما وقف الكتاب الرجعيون يزينون للسلطة طريق العدوان وأن تبدأ هى ضربتها ..

وانقسم رجال الفكر والأدباء والفنانين إلى معسكرين . الأحرار مع الشعب والمأجورين مع أعدائه . . كان قد قضى على المعارضة بأن لا تفتح فمها . . وحرمت المناقشات العامة تحريما باتا وأخذ بوليس لندن يواصل هجماته الليلية على مختلف الاجتماعات والأندية ، فكان يقبض حتى على المغنين ويقتحم دور اللهو ويصادر الجرائد من أيدى القراء بما فيها الجرائد الرجعية ذاتها .. وفى مثل هذه الأوقات العصيبة كانت كل كلمة تقال ، وكل سطر ينشر ، وكل مسرحية تمثل ، تنطلق جميعها كالرصاص فى آذان الرجعيين . غير أنه كان من المستحيل أن لا يقول الناس وأن لا يشيروا إلى ما يفعلون وما يسمعون وما يفهمون . وكما قال بيرون .. « لم يكن فى مقدور أحد أن يتكلم عن أمير أو عظيم إلا وتوقع الاضطهاد إذ يحمل أى قول من هذا النوع على محمل

الشك والتأويل » .. حتى أنه كان يصر فى تقديمه لكل مسرحية يكتبها بقوله أنها «لاتعالج السياسة البريطانية وإنما تعالج السياسة فى إيطاليا » . . ومع ذلك فقد أثارت مسرحية « مارينو فاليرو » ضجة هائلة بسبب عدة سطور تحدث فيها عن الفضيلة ! ! سطور لا معنى لها اليوم !! ولكنها فهمت أيامها فهما ملتويا !! فهمت على أنها تعريض بولى العهد ! ! .

ووقف بيرون وشيللى وكيتس ، بين صفوف الشعب ، يدافعون عن الديمقراطية . فأطلق عليهم وعلى غيرهم من صفوة الكتاب الذين كانوا يؤمنون بالحرية . . أطلق عليهم لقب «مدرسة الشياطين».. واتهموا جميعا بالإلحاد والكفر والزندقة وكان من السهل محاكمتهم على أى من هذه التهم . لكن الرجعية دبرت لهم من وسائل الضغط والعنت ألوانا أخرى غير المحاكمة والسجن .. ففى سبيل القضاء على هؤلاء الأحرار ، قسم الرجعيون قواهم إلى جناحين . . وبينما اتجهت السلطة إلى الضغط وتضييق الخناق على الناشرين والصحف ، واتجه البوق ولنجتون إلى الاعدادات العسكرية لكبت ما كان يصرخ منددآ باحتمال وقوعه « ثورة فوضوية عارمة » . . إتجه الكتاب المأجورين إلى إخفات صوت ، الأحرار بتجاهلهم وإقصائهم بعيدآ عن ميدان الحياة الأدبية ، وطيهم فى زوايا الاغفال والنسيان .

وانبرى سوزى ، أمير الشعراء الرجعى ، يهاجم بيرون خاصة بعد ظهور الطبعات الرخيصة من كتابه «دون جوان والملكة

ماب » وتبادلها بين الفلاحين والطلبة والحرفيين ورواجها فى تلك الأوساط رواجا سريعا هى وغيرها من « المؤلفات السامة » على حد ما كانت توصف كتبهم .. ولما لم يفلح سوزى فى النيل من شهرة بيرون ، والحط من قيمة شعره ، والحد من رواج كتاباته بين جماهير القراء ، اتجه ينصح ملحا فى ضرورة الضرب على أيدى العناصر المحطمة لكيان المجتمع بقوة الحديد والنار .

لكن أقلام الأدباء والكتاب الأحرار فى ذلك الوقت كانت أمضى فى قوتها من طلقات البنادق فكان سوزى و بقية الكتاب الرجعيين يصرخون مطالبين بتقييد حرية الرأى ، حتى لقد قال فى عنت وإصرار .. « إن نشر أى كتاب فاسق مما ينشرون ، هو من أكبر الآثام التى يمكن أن ترتكب فى حق الديمقراطية ، فتنبهوا لهم قبل فوات الأوان ، وإلا انهار البناء على رؤوسكم » .. على أن بيرون ما كان يطيق صبراً على مثل هذه المغالطة ، فكان ينبرى ليهاجم المأجورين من الكتاب بنشر رسائل صغيرة ، فى صورة مقدمات لمؤلفاته يتحدى بها عدوانهم .. « إن هؤلاء الذين يدعون الحرص على كيان المجتمع ومصالح الوطن العليا وغيرها من المزاعم البراقة التى يضفونها زاهيـــة على آرائهم الظالمة ، هم آخر من يحرص على حقوق المواطنين وحرياتهم التى تمثلها تلك المصالح .. فهم يرجفون بأن الدستور الانجليزى سيتهدم من فيض الحرية ، فى حين أن الدستور لن يتهدم إلا على أيديهم وأيدى القابضين على خناق الشعب من أعداء الحرية » .

وفى مقدمة أخرى قال بيرون فى حماس محذراً من مغبة العسف .. « لا تستمعوا إلى صيحات الباطل وتسكتوا أصوت الحرية الذبيحة ، واعلموا أن هذه ليست إلا بداية الموج الذى وإن كان يتكسر اليوم قبل بلوغ الشاطىء فسيتبعه حتما المد الزاخر المتجمع حتى يعج به البحر فيبتلع قواقع الطغيان فى جوفه السحيق ... » ثم انثنى يدلل ، بعد أن اتهم بأنه كان يروج للثورة الفرنسية ومبادئها ، على أنه وبقية الأحرار لا تربطهم علاقة بثوار فرنسا ، ولا يهدفون إلى تكرار مأساتها فى بريطانيا كما يتهمهم أعداؤهم وأعداء الديمقراطية ، وقال فى شاعرية خافقة ..

ليست هى قطعاً أمواج بحارنا وحدها
إنما هى أمواج الحرية الطالحة فى كل البحار
تزحف عاليه لتغطى جميع الشطئان

وازدادت المشادة بين بيرون وخصومه ، وحمى وطيس المعركة ، فاتهمه بعض منهم بأنه « مخرب هدام يحرض على الثورة » .. ورد بيرون على اتهاماتهم رداً عنيداً أرسله إلى توماس مور فى أغسطس سنه ١٨٢٢ فقال . « هناك احتمال قوى أن لا يتم سريعاً ما أنشده من تغيير فى الأوضاع والقيم . . لكنها معركة الحرية ويجب أن أعجل بوقوعها الآن ، لأن وقوعها سيكون فى صالح الإنسانية جمعاء ، مهما كانت مغبتها علينا جميعا ، نحن الذين سنكتوى بنارها .. »

وقبل أن يستطيع الاهتداء إلى ناشر يرضى بطبع كتابه

الجديد « القصاص الماثل » كانت الرجعية قد أتمت سيطرتها ، فصرخ بيرون فى كبريائه المعهودة « سأعيش أحارب كل من يحارب الفكر . . ليس فى الوجود من يستطيع أن يوقف سير عقلى فيمنعنى من أن أقول للطغاة أنتم طغاة .. أبداً .. أبداً .. ما من سلطان على الأرض يمكن أن يطأ الفكر بجبروته لأن قوة الفكر قوة خفيه لا تقف أمامها أية قوة أخرى ... »

كل هذا الحماس كان فى طبيعة بيرون . . لكن مما لا شك فيه أن شيللى كان أعمق فهما وأوسع أفقا فى نظرته إلى الحرية وإيمانه بها . . وفى ذلك يقول بروفيسور وايت « إن شيللى وحده دون بقية الكتاب العباقرة من أبناء هذا الجيل ، هو الذى كان يمثل الحرية الصحيحة، سواء فى معتقداته الدينية أو فى مذاهبه الاجتماعية أو فى آرائه السياسية .. وأيضا فى أساليبه الفنية » .

أما كيتس فإنه لم يعش طويلا ليشهد صراع الفتيان . .

وظلت شخصية بيرون الثائر تشغل أبرز مكان فى أذهان الناس ، لأنه كان الوحيد الذى نظر إليه الكل ، على أنه حامل السيف وحامل القلم فى سبيل الحرية ، حتى نبتت فى ذهن بيرون أسطورة المجد العسكرى ، التى ظلت تراوده طوال العمر . . فقد كان حلم صباه أن يقود فيلقا من الأبطال البيرونيين يضم نابليون وواشنجطون وبوليفار وغيرهم من أبطال زمانه الثائرين . .

وفى عام ١٨٢٤ حينما نعتته الصحافة الرجعية بأنه « شيطان ملحد ثائر » بدأ يتحدث عن « ضرورة الصراع مؤقتا بالقلم حتى يستطيع المرء الحصول على سلاح أمضى وأقطع » . وبعد ذلك . . « نحق الحق ونزهق الباطل ونقضى على ظلم الغاشمين »

ولما طال الصراع بالقلم ولم يجد القلم ، عاد يصرخ يأسا . .
« لا زلت أكرر أننا فى حاجة إلى المزيد من الدموع وفى حاجة إلى المزيد من الدم ليسرى أنهاراً حتى تتحق الحرية . . » ـ وعلق الشاعر ورد سورث على هذه الأقوال وغيرها مما كان يكتبه بيرون فى تلك الأيام فقال . . « لقد أصيب بيرون بمس من الجنون ولابد أن تنتهى به هذه الحال إلى مستشفى المجاذيب » . .

واضطر بيرون بعد هذا الصراع اليائس المرير إلى النزوح عن بلاده فرحل إلى إيطاليا . . وهناك ظل يعلق أمله على هبة شعبية أخرى ليعود منتصراً ظافراً . . « وعلم الحرية يرفرف هفهافا خافقا فيطيح برؤوس الظلم . . » ؟ فلما وقع إضراب عمال لوديتس واستمر اعتصامهم ردحا طويلا وقامت المعارضة الحرة بهجوم موفق ضد الرجعية المتحكمة . . انطلق بيرون ليتغنى من جديد بالحرية حتى شبه المعتصمين بعصابات التحرير الأمريكية التى كان افرادها يطلقون على أنفسهم فى الثورة الامريكية اسم . . . فتيان الحرية . . وأنشأ يتغنى بثورة الأمريكيين التحريرية على الاستعمار البريطانى . .

هناك عبر البحار
اشترى فتيان الحرية حريتهم بثمن بخس . .

اشتروها بدمائهم

وكذلك نحن أيها الفتيان هنا . .

سنموت ونحن نصارع الظلم . .

حتى نعيش أحراراً وليسقط الطغاة . .

ليسقط الطغاة فى كل مكان على الأرض . .

ولكن المعتصمون سرعان ما عادوا إلى مصانعهم وخيم السكون من جديد على الجزيرة الهادئة . . وحاول بيرون أن يحرك ساكنها من الخارج ، فشرع يعد نفسه للعودة ودخول بريطانيا على رأس جيش فاتح من « فتيان الحرية الأبرار » . ثم حدث أن انتصر ممثل الأحرار فى إحدى الانتخابات الجزئية ، ونشر شيلى مؤلفه عن «ثورة الإسلام» ، فقامت الجرائد الرجعية تلعنهما وتلعن تلك الطغمة من الكتاب والمؤلفين ، الذين يحاولون فى كل فرصة أن يطوحوا بقبضة القانون جانبا ليطلقوا أصوات الدهماء . . وازداد الضغط ، فنشر كارليل فى مجلته الأدبية مقالا افتتاحيا ، تحدى فيه السلطات ودعى الكتاب إلى تحرير وثيقة ضمان حقوق الشعب سميت «وثيقة حقوق» وكان الشاعر شيلى هو واضعها ، وقد ختمها بهذا البيت المعروف من قصيدة الشاعر ملتون الخالدة «الفردوس المفقود» .

هبوا . . . انهضوا . . .

وإلا فلتحل عليكم اللعنة إلى الأبد . . .

وبعد ذلك قبض على كارليل وحوكم ، فعلق بيرون على ذلك بقوله .. «إنها محاكمة هامة ستؤثر نتيجتها على قضية التقدم .. نحن إنما ندافع عن حرية الفكر وهى حرية يرتبط بها مصير البشر فى المستقبل » ..

ثم عاش بيرون قلقا مرتاعا ينتابه القنوط وهو يصيح مردداً:

لماذا يطغى الظلام على كل شىء . . .

أيتها الحرية ...

شعاع ضئيل من نورك كفيل بتبديد هذه الظلمات الغامرة . . .

لكن بيرون لم يفقد الأمل إلى النهاية . فحين أوقف ناشر دواوينه طبع النسخ الأخيرة من ديوانه الكبير « الدون جوان» خوفا من التعرض للبطش ، بعث اليه بيرون بخطاب من إيطاليا يستحثه على الثبات .. «يجب ألا يراودك الشك لحظة فى انتصار الحرية. إن كل شىء مرهون بالشعب ومشيئته. وإرادة الشعب هى الفاصلة... ومادام الحق فى جانب الشعب فلا بد من انتصار الشعب »

وهكذا عاش فتيان الحرية يثقون بالشعب ثقة لم تتزعزع فى يوم من الأيام . وكان مصدر هذه الثقه إيمانهم المطلق بالحرية وإجلالهم للفكر ، هذا الإجلال الذى بلغ حد التقديس حتى تناقلت شعرهم الأجيال لأن أدبهم كما يقول الناقد إيفان رو . . لم يكن أدبا ذاتيا قاصراً ، وإنما كان أدبا يهدف إلى خدمة الحياة الانسانية .

. القلوب الذهبية

ثم بدأ ازدهار الصناعة الحرة ، ونمت الرأسمالية البريطانية ، وسادت الشعب البريطانى ، وخرجت تسيطر على شعوب الأرض فى الامبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس ، وكان الأدباء أسبق من كل ما عداهم ، فى وعيهم بأرسخ الحقائق الغائرة وراء ظواهر المجتمع الصناعى الجديد وجاء كتاب القصة فانصبت جل تحليلاتهم على القول بأن جوهر العلاقات الاجتماعية الجديدة التى تربط الناس بعضهم بعضا ، قد تغير ، فتركز فى سيطرة أرباب المال من ملوك وأمراء وفرسان الصناعة . قال ناقد يصف ذلك الوعى الدقيق عام ١٨٤٥ « إن مدرسة القصصيين الأفذاذ الحالية فى انجلترا ، التى كشف رجالها بأوصافهم الدقيقة الحية للعالم عن الكثير من الحقائق السياسية والاجتماعية، قد فاقوا فى هذا الباب بمراحل طويلة جميع السياسيين والمفكرين والأخلاقيين مجتمعين. فلقد صوروا فى عمق نفاذ البذور الأولية الحقيقية التى ينبعث عنها الجهل الفاضح والاستبداد الغاشم الذى يجتاح المجتمع الراهن ، ويقف على رأس هذه المدرسة الروائى الكبير شارلز ديكنز » .

على أن مجرد الوعى بهذه الحقائق وتصويرها التصوير الصادق الدقيق، ليس مهمة الفن الإنسانى، إنما يلزم أن يعارك الفن الحياة وتكون رسالة الفنان أن لا ينقل ويصور ما يرى من شرور ومساوىء فقط وإنما يلزم أن يكافح ويعمل من أجل القضاء عليها . . وقد فعل ديكنز ذلك .

كان عصر ديكنز ومن تلاه ، عصراً فريداً فى التاريخ الإنسانى إذ اتسم بظهور طوائف اجتماعية جديدة من الملايين وسط الجموع الشعبية التقليدية . طوائف ظلت تنمو خلال قرون الاقطاع الطويلة هى طوائف الحرفيين وأصحاب السواعد ممن لفظتهم الأرض فاتجهوا إلى الصناعة بعد ظهور الآلة على أيام ديكنز وخرجت منهم فى النهاية ، طبقة العمال .

قصر ديكنز كل إنتاجه الفنى على وصف هذه الجموع الشعبية الجديدة ، فأدخل الأدب فى دنيا خلت من الملق والرياء الذى كان يستتبعه التمرغ على أعتاب الملوك والأمراء والخضوع تحت سيوف الفرسان ، كما أبعدته عن جشع التجار من عبيد الربح . وبدأ الفن يتطلع إلى دنيا العناء والكد ، وينظر إلى إحيائها فى عطف وإشفاق ورغبة خيرة فى إصلاح حالهم والأخذ بيدهم والنهوض بهم من الآلام والشقاء والبؤس والتعاسة وكل ما يرديهم تحت الأقدام . .

ولا يضير ديكنز فى كثير ، أن يقال عنه أنه عجز عن أن يفسر تفسيراً صحيحاً كلياً ، ما كان يراه بوضوح تام . فإن أحداً غيره لم يستطع أن يصور حياة عامة الشعب البريطانى فى مثل ما صورها وما كان فى مقدور سياسى أو مصلح اجتماعى أو مفكر أن يدرك مطالب عامة البريطانيين وآمالهم مثلما كان يدركها ديكنز . فهو لم يكتف بأن يصور حياة العمال ويصف شقاء بقية طوائف الشعب الأخرى ، بل وقف ديكنز مع هذه الطوائف يزود عنهم

بغى والمساومون الذين يتجرون بحياة الملايين ومستقبلهم فى سوق رخيصة » .

كانت رسالة الأدب عند ديكنز ، أن يقصره على حياة الشعب وتقدم هذه الحياة ورفعتها ورقيها . وقد حاول جاهدا فى كل ما كتب أن يجد الحلول الكفيلة بتقدم الحياة الشعبية ، فكان يصور الواقع الشعبى على حقيقته المرئية ولكن ينظر إلى قضاياه بعقلية إصلاحية ترتكن إلى فلسفة قوامها أخلاق هزيل ، ولا غرابة فى ذلك أبدا ، فقد كان ديكنز ابن عصره . عصر نيتشه الذى حكم على الإنسان بأنه شرير ولا يمكن استئصال الشر من نفسه وبالتالى لا سبيل إلى تغييره إطلاقا » .

على أن ديكنز لم يكن يسيطر عليه التشاؤم . فقد عاش يدعو طوال حياته إلى سيادة الخير رغم إيمانه بانعدام الخير . . وكان مصدر دعوته إلى إصلاح حال الناس وإسعاد الجوع ، هو حسن النية التى لم تكن تتوافر على حد ما كان يرتجى ، إلا بتكاتف « القلوب الذهبية » . . إنما الذى يؤسف له أن القلوب فى أيامه لم تكن تصنع من الذهب ، بل كان الذهب يصهر ليصير حديدا وفولاذا تصنع منه الآلات والعدد الجديدة .

لكن ما فعله ديكنز كان عظيما . .

فقد جعل من القصة وسيلة للتعبير عن الواقع الاجتماعى ،

واستطاع بفضل قدرته على استثارة شغف قرائه وإعجابهم بحيوية جموع الشعب وعامة الناس، على أن يحرر القصة من الجمود ويبعث فى صفحاتها النطق الذى فتح أمام أعيننا أبوابا كانت مغلقة . «أبواب عالم حى زاخر كنا نراه ولا نكاد نحس بوجوده حقيقة . ذلكم هو عالم الشعب ودنيا البشر الحقيقيين ، الذين يصنعون لنا الحياة » .

* * *

النفوس الحائرة

انتهى ديكنز بالفن إلى الشعب ، وكان من المتوقع أن يكمل المخلصون من رجال الفن بعد وفاته حلقات التطور ، ويزيدوا من متانتها ، مسلسلة على القرون . . فيربطوا الفن نهائيا بالشعب . لكن الجموع الشعبية الجديدة التى كتب عنها ديكنز ، سرعان ما أصبحت مصدر خطر مباشر ووسيلة من وسائل التخريب والانهيار . . أو هكذا كان يجب على الفنان أن ينظر إليهم وإلا حقت عليه لعنة الأسياد من أصحاب الآلة . .

وأجبر كل فنان جاء بعد ديكنز ، على تجاهل الشعب طالما كانت تعيش بين جموعه تلك القوة الرهيبة . قوة أصحاب السواعد الذين تحولوا عن تحطيم الآلات إلى مصارعة أصحاب الآلات . وبعد الفن عن الشعب بونا شاسعا . .

وجاء من الفنانين بعد ديكنز ، رجال آمنوا بأن لا حياة للفن بدون الشعب ، لأن الشعب هو الجوهر الباقى ، والفن بقاء راسخ وليس هباءا منثوراً . . وكان من الطبيعى أن يكون أكثر خلفاء ديكنز من رجال الفن تطلعا إلى هذه الحقيقة، ربيب الفن.. أوسكار وايلد .

فإذا به ينادى فى فترات اليأس القاتل التى كانت تجتاحه وهو بعيد عن الجموع « هذه القوى المخربة بين الشعب التى تخشونها هى بشير الحرية . هى أمل المستقبل . . هى منقذ الجموع . . بل هى القوة القادرة على إنقاذكم أنتم أنفسكم يامن اعتكفتم فوق قمم الجليد

البارد بعيداً عن حرارة الأرض.. » ثم ينشد ويخاطب الشعب..

إن هديركم عن الديمقراطية
وتضحياتكم من أجل المساواه
تلك التي يصورونها على أنها ضرب من الارهاب
أو يصفونها بأنها عين الفوضى . .
تصور عواطفى الصاخبة كالموج . .
وتتجاوب مع غضبي ونقمتى . .

على أن أوسكار وايلد لم يكن يؤمن بالشعب إلا إذا يأس واحتاج للدفء والحرارة التى تنبعث من تزاحم جموعه . . فقد كان وايلد يعيش حياة عابثة أقرب إلى الفوضى بالمعنى الذى كان يفهمه هو من تعريف سادته لكل هبة شعبية تقوم فى وجههم . . وفى لحظة نراه ينقم على الشعب ويزدريه ويعلن احتقاره .. لهؤلاء . .

الذين لا تستطيع عيونهم الجامدة المتحجرة
أن ترى أبعد من أحزانهم . .
والذين لا تدرك أفهامهم شيئا . .
ولا تعنى عقولهم بإدراك شيء . .

ثم نراه ينثنى عليهم فى غضب أهوج ونقمة طارئة . .

ليستبدوا بكم الأسياد ما شاءوا
وليسوموكم من العسف ألوانا
فان هذا لا يحركنى أو يثيرنى
مهما كان مبلغ حبى لكم
وإشفاقى عليكم . .

وبعد ذلك .. إذا به من جديد ينحاز إلى جانبهم ..
ولكن .. ولكن ..
يا هؤلاء الذين تدوسكم أقدام الطغاة ..
الله يعلم أننى معكم
وأن بيننا أواصر واحدة
ويأخذه الندم بعد ذلك على أنه تجاهلهم فيعترف فى ختام حياته وفى قصيدة طويلة باكية ينعى بها جهوده آسفا ..

لقد عشت أحب بالفن
وأهيم بالثقافة الرفيعة
كالظمآن الذى يرى السراب
فيظنه ماء
ويقبض على حفنات الرمل
فيخالها ملء يديه
لقد وقفت على الشاطىء
بعيداً عن الموج ..
ولم يصبنى حتى الرذاذ ..
يا من فى الأعماق ..
أيتها الجموع الغارقة
أيتها الجموع الشقية التعسة
من البداية
كان يجب أن أعيش معكم

ورغم هذا فلم يكن أوسكار وايلد يؤمن بأن للفن رسالة بل كان يتخذ الفن وسيلة للهروب من الحياة. وأعانته فرديته طويلا على أن يعيش قصيا عن جموع الشعب .. ذلك أن الفن عنده لا صلة له بالحياة ولا يمكن أن يكون وسيلة لفهمها ونقدها . . «هو عندى وسيلة للارتفاع عن الحياة والهروب من واقعها وليس له من هدف غير التمتع بالقيم الجمالية التى تنقذ الانسان من عقله وتجنبه نقمة التفكير فى مصيره ووجوده !!» ،

فلقد كان التفكير فى الحياة وفى الوجود معناه عند وايلد «الوعى بما لا يجب أن نعيه أو ندركه .. الوعى بحياتنا التى نحياها فعلا ..» وعاش وايلد ومات . . فكان كما وصفه معظم النقاد . . «أستاذ مختلف مدارس أدب الهروب الشائعة فى عصرنا اليوم» ...

◆ ◆ ◆

أعداء الانسان

وتلى عهد وايلد عصر الانهيار..عصر اتصف بالتنكر للحقائق الموضوعية والاستمساك بالفردية المطلقة والاغراق فى تصوير الأحاسيس الذاتية والشغف بالوهم والتعلق بأهداب الخيال وكل ما يناقض العقل من السمات المقومة للأدب الحى . . وتباعد الفن عن الشعب ونأى إلى آفاق ظلماء باردة لاحرارة فيها ولا حياة..

وحل الوقت الذى أصبحت تقدس فيه الغرائز وتمجد الأحاسيس، وانتصر الجانب الحيوانى فى الانسان، فكانت تلك الردة التى يزدرى من أجلها العقل؛ وكل هذا بزعم أن الغرائز توائم الانسان بالكون وبالطبيعة بينما ساد القول بأن العقل « دخيل مخرب يقضى فى الانسان على إنسانيته وفطرته ».

لخص نيتشه بفلسفته وفى أدبه، كل هذه الاتجاهات والأحكام التى أدين فيها العقل ، فزعم أنه « لا يمكن أن يكون العقل هو الملكة الوحيدة التى ترفع الانسان فوق نفسه ... » وسادت هذه النظرة على ما عداها وأصبح الفن يكلف بالانسان الغريزى فى بدائيته الفطرية وادعى رجال الفن أن هذا « هو الانسان الحقيق الذى يفضل بغرائزه وفطرته الانسان العاقل صاحب الحضارة الاجتماعية .. لأن هذا الأخير .. إنسان صناعى . . » وبهذا نطق زرادشت على لسان خالقه نيتشة . . « ومن وراء ذكائك يقف سيد عظيم هو الجسد ... »

وأوغل نيتشه فى خرافته ، فحاول أن يتكلم بلسان الجسد وأرجع للأجساد والغرائز إكساب العقل القدرة على التفكير وجعل التأمل من فعل الأحاسيس وأمسك بمعول مخرب حطم به المثالية . . وأتى بفلسفة أشد رجعية منها ، وعلى الأصح أتى بشكل من أشكال الفلسفة المثالية يعتبر أشدها رجعية حين أعلن أن العقل ما هو إلا غريزة حيوانية مهذبة . والنتائج التى يصل إليها العقل ليست إلا صلب الغرائز . . أما الحقيقة الموضوعية التى يقال أن العقل يكشفها فليست سوى سراب ، إذ لا وجود لغير الغرائز ولا حياة بغير الأحاسيس . .

وتكونت أغلفة الفردية حول هذه النواة التى كان ينثرها نيتشه فى ثنايا فلسفته نثرا متفرقا . . وأخرج الفرد من المجتمع ليعيش على أحقر ما فى كيانه وذاتيته .. وأغلقوا عليه باب المعرفة بحقائق وجوده وبيئته ومجتمعه ودنياه . . وأوقفوه عاريا مجردا من كل قيم كسبها خلال القرون، بفهمه وثقافته ومعرفته . . ليتدثر بغرائزه الحيوانية البدائية وأحاسيسه الفطرية وحدهما . .

وكانت فلسفة نيتشه الرجعية هى قوام الفردية التى اجتاحت الأدباء والفنانين، فأبعدتهم بأدبهم عن الجموع نهائيا وسجنتهم سجنا اختياريا بين جدران الغريزة والحس . . بعيدا عن مجتمع الحياة والناس . .

وبهذا وصلت نظرية الفن للفن إلى أوج ختامها .

الفن والحيـاة

وقبـل الربع الأخير من القرن التاسع عشر أصابت الصناعة البريطانية أزمة شديدة هزت مركز الثقل فى المجتمع البريطانى . . وأخذت القيم والمفاهيم ترتج ، خاصـة بعد أن تبلورت الدعوة الاشتراكية وأخذت طريقها نحو مهد الاستعمار ، ثم وجدت من يؤمن بها من المفكرين والفلاسفة والكتاب ويدعوا لها بين صفوف العمال .. وجاءت الاشتراكية معها بفلسفة جديدة قوامها أن لا قيمة للفرد فى ذاته وأن المجتمع هو الأصل . . فلا حياة إلا حياة الجموع .

وتوالت الصيحات من كل جانب .. فهتف الفيلسوف رسكن « لا يمكن أن تكون الأعمال الفنية العظيمة تعبير عن فرد ، فهى نتاج المجتمع ، تنطق عن جموعه المتحدة ، وإلا ما كتب لها البقاء »

وأنشد الموسيقى المفكر فاجنر . . « لا قيام للفن الحقيقى إلا إذا كان بشيرا بحياة أفضل يتمتع بها جميع البشر . . . »

ثم أكـد تولستوى فى إيمانه الحار .. « على عكس مايزعم دعاة ما بعد الطبيعة ، الفن ليس مايجلو فكرة غامضة عن الجمال أو الخير أو الحق . . ولا هو كما يزعم علماء الجمال ، مجال تعبير الإنسان عن طاقاته المخزونة أو إفصاحه عن عواطفه بالرموز الخارجة عن نفسه ثم إنه ليس إنتاج كل ما يبعث إلى النفس السرور والبهجة .. لا أبدا ليس الفن مجلبة للتسلية . . إنما هو وسيلة لاتحاد الناس بعضهم

ببعض فهو الذى يجمع بينهم فى مشاعر موحدة ولا غناء عنه للحياة وللتقدم نحو هناءة الأفراد وسعادة الإنسانية » . .

وأخيراً فسره ساندرسون فقال « إن الفن كغاية عليا من غايات التأمل الإنسانى ، لا يمكن أن يكون هدفه مجرد خلق بدائع الجمال . . . وإنما هو شىء أبعد من ذلك بكثير . . الفن هو دافع قوى من دوافع وجود الإنسان .. دافع للارتقاء يسعى مع تطور القوى الطبيعية . . أن يخلق من أحاسيس الأنانية قوة كبيرة منزهة لخدمة الخير العام للبشر » . . .

وجاء برناردشو فتسنم صاعداً مع روح العصر ولخص القضية فى كلمة واحدة . . الفن للحياة . .

◆ ◆ ◆

الفن للحياة

عاشت عبقرية شو بصاحبها على مدار أجيال متعاقبة وقد أثر أدب شو على انجلترا تأثيراً لم يكد يستبين بعد ، رغم مرور سنوات على وفاته .. كان تأثيره على العالم أبعد مدى . وليس من أدب معاصر يمكن أن يلخص متجه الأدب نحو الحيـاة فى مجتمعنا الحديث أكثر مما يلخصه أدب شو .. ولهذا يلزمنا بعض التفصيل.

ينتمي شو إلى الوطن الايرلندى وقد نشأ فقيراً كأغلبية الايرلنديين .. وطنى متطرف كأى إيرلندى مثله . وهو لم يرث من وطنه إلا الفقر والوطنية المتطرفة .. كانت أمه ذات شخصية قوية فى حين كان والده سكيراً عربيدا يصلح لأن يكون «جار وليس أب» كما وصفه بنفسه ...

وينظر برنارد شو الى هذه الطفولة التعسة بمرارة لا تمحى ، فيقول « من درج فى طفولته على الفقر ، لا يمكن أن تخرج رعدة الفقر من عظامه طوال الحياة » — ويقول عن أمه « وقد تحملت تربية أطفالها وتربية والدهم كما تحملت الفقر والسكر ومتاعب حياة لا تطاق ولا تحتمل حتى خرجت من هذه المهانة غير آسفة » — وهذه الطفولة هى التى جعلته يؤمن طوال حياته « أن من واجب الدولة أن تعنى بالأفراد وخاصة الآباء والأمهات وذلك بإعداد بيوت سعيدة للأطفال حتى تحميهم من الحيف وحتى يجدوا فى رعايتها ملاذا من الفقر والاهمال .. »

وبلغ العاشرة فانقطعت أواصر الأسرة بالكنيسة وأقلعت الأم وأقلع الأب عن الاستماع لمواعظ القسيس فلم يجد الطفل مبررا للذهاب وحده .. ورغم أن والده كان سكيراً عربيداً لا يؤدى فرائض دينه، فقد كان يكره فى الطفل سخريته من الانجيل وهو ابن العاشرة وكان الطفل يأخذ ما فيه من أقاصيص على أنها خرافات مسلية... وهذا يدل على أن برنارد شو كان أكبر من سنه فعلا ، لأنه كان أيضا يجادل أبويه فى الرأى عن كل موضوع يثار فى وجوده ، بصراحة لاتعهد فى الأطفال .

وفى مثل هذه الأسر تكون الحياة أقرب إلى البوهيمية ويتغلغل حب الفن على روح العمل والحياة العملية وجدية الدين . ولهذا نشأ شو فنانا من طفولته، وقد درج على كراهية المجتمع والاختلاط بالناس ، وكان لا يحب التزاور خاصة لأقاربه . . وطبيعى أن لا يعشق من البدايه إلا الموسيقى التى يقول أنه عشقها وغاص فيها كما «تعشق الأوزة الماء» .. فقد كانت أمه عازفة تهوى الغناء . . يقول. «بلغت الثانية عشر وأنا أوقع بين شفتى جميع القطع الفنية الرائعة التى سمعتها من بيتهوفن إلى أغنيات الشارع فى دبلن .» .

وقبل أن يبلغ الخامسة عشر كان قد بدأ يبحث عن عمل يقتات منه ويعول به الأسرة . وقد دفعه ذلك إلى القول « إن من أكبر المآسى التى يجب أن يتحاشاها الانسان المتحضر إجبار الأطفال على العمل قبل نعومة أظافرهم ليكسبوا قوتهم وقوت من أنجبوهم إذ يجب ألا يضحى بمستقبل النشء بمثل هذه الصورة المخجلة.

وكانت كل مؤهلات الصبي وهو فى الخامسة عشر، أنه يستطيع أن يغنى صفحات كاملة من موسيقى هايدن وموتزار وبلليني ومندلسون وبيتهوفن وفردي . ولكن هذه الموهبة المعجزة لم تفده بشيء . . فتوسط خال له ثرى من أصحاب النفوذ حتى يشتغل كاتباً مساعدا فى إدارة إحدى المزارع .. وبعد عام طرد صراف المزرعة فرشح برناردشو لشغل هذه الوظيفة .. وفى سن العشرين أشترى بذله جديدة من مرتبه كصراف . . على أن ميوله الفنية سرعان ما تعارضت مع كل هذا الإذلال ، رغم أن مثل ذلك العمل يعتبر نجاحا ملحوظا .. وراح يتحين الفرص للسفر إلى لندن . .

وفى هذه الفترة كان برناردشو كثير القراءة ولكن ثقافته الموسيقية كانت تفوق ثقافته الأدبية ، رغم أنه كان قد أتى على معظم كتابات موليير وديكنز وتأثر تأثراً كليا بأشعار ومعتقدات شيلى التى أدت به فى نهاية الامر إلى أعتناق الاشتراكية . . ثم قرأ الإقتصاد . . وحتى هذه اللحظة لم يكن برناردشو يعرف إلا لغة واحدة هى الإنجليزية ، وظل طوال حياته لا يجيد أى لغه إلى أن تعلم الفرنسية فى منتصف العمر وكان يتكلمها بسهولة وطلاقه . .

وغادر دبلن . . وهرع إلى لندن ليعيش مع أمه وأخته وترك وراءه والده فى دبلن ووظيفه طيبه . . يقول « ودخلت عاصمة الإنجليز وأنا لا أضمن قوت الغد » .

وفى لندن أشتغل فى شركة تليفونات أديسون ثم أستقال من وظيفته الكتابية فى الشركة ليؤلف الروايات . . وفى الفترة بين

١٨٧٩ حتى ١٨٨٣ كتب خمس روايات طويلة رفضت نشرها له جميع دور النشر التى مر عليها فى لندن. يقول «كنت أكتب هذه الروايات وأنا أعلم مقدما أنى لن أنجح فيها، ولكن كان لا بد لى أن أشتغل بأى شىء لأنى عودت نفسى من الصغر أن تقوم حياتى على العمل الدائب المتصل الذى لا يعرف الكلل».

وبعد هذا الفشل، وجد برناردشو نفسه يجول بين الجمعيات الثقافية التى تعج بها لندن فى ذاك الوقت ؛ وأهمها الجمعيات التى كانت تدعو إلى المذاهب الإشتراكية.. وبعد سنوات أصبح من أبرز الأعضاء فى جماعة الفابيان، لأنه أتقن الخطابة إلى جانب اتقانه الكتابة.. يقول عن هذه الفترة.. «عشت جائعاً فى لندن تسع سنوات وأنا أقتات على مبادىء الإشتراكية»..

وطوال هذه الحقبة لم يجد شو نفسه مرتبطا بأى وظيفة أو قيد، ولكنه على ما يصف «لم أعانى الجوع لأكثر من أربعة وعشرين ساعة، وهذه بلا شك أقصى مدة يمكن أن يتحملها إنسان حساس مثلى...» وحدث أن كان له صديق محرر بإحدى المجلات الأدبية، يقوم بالإشراف على باب تلخيص الكتب فأعطى برنارد شو كتابا ليلخصه.. وتطور الأمر من تلخيص الكتب إلى نقد الرسوم والصور الفنية.. ومن بعدها أصبح يكتب عمودا فى نقد الموسيقى كل أسبوع نظير جنيه كامل.. وارتفع الأجر حين تخلى محرر صفحة الموسيقى نهائيا عن التحرير، وأخذ برنارد شو مكانه مقابل خمسة جنيهات فى الأسبوع. ثم مات

صاحب المجلة فتركها إلى أخرى ، وظل يشتغل بالصحافة زمنا . .

« لم أكن أومن بالصحافة لأنها ليست مجالى .. ومع هذا فقد أتاح لى ذيوع الاسم والقدر الكافى من المال الذى يساعدنى وأنا أقطن بجوار المتحف البريطانى على أن أقضى أغلب النهار فى قاعات القراءة . . سيما حين لازم الحظ أمى فاشتغلت بتدريس الغناء وكانت تكسب ما يساعدنا على إقامة منزل، للطعام فيه صفة الدوام والاستمرار »

هذه الإلمامه البسيطة السريعة عن حياة شو توضح لنا اللبنات الأولى التى أقام عليها كيانه العملاق .

فالحقيقة الأولى أنه درج من صباه أديبا وطنيا بمعنى أنه لم يكن إيرلنديا من أتباع السين فين ، ولا من هؤلاء الذين يتجاسرون على إلقاء القنابل فوق كبارى لندن . . وإنما وطنيا يستند فى وطنيته إلى الفهم الحضارى الذى يدرك حقيقة الاستعمار وتاريخه وتطوره ومدلوله العالمى . . ومن أجل هـذا ، تعصب لدنشواى فى مصر تعصبا جعله يضع مسرحية عن الحركة الوطنية فى إيرلندا ، لأن مصر كانت بالنسبة للأمبراطورية البريطانية على عهد كرومر ، ركنا من الأركان القويمة للإستعمار . . فلما كتب برنارد شو مسرحية « جزيرة جون بول الثانية » عن وطنه إيرلندا، مهد لها بمقدمة رائعة عن احتلال الإنجليز العسكرى، لمصر وآثاره ونتائجه ، كما تجلو بشاعتها مأساة دنشواى . .

وتلاها بمسرحية ثانية عن حركة استقلال أمريكا. هى مسرحية « تلميذ الشيطان » . ثم تتابع الخط واضحا فى كثير من مسرحياته

التى عالج فيها الوطنية ومظاهرها وأشكالها وأحداثها فى مختلف الأوطان وعلى مر العصور .

ولعل أجدر ما فى هذه الناحية مسرحية «سان جون» التى كتبها عن قديسة فرنسا ومحررتها الأولى «جان دارك» . ففى هذه المسرحية يحلل برنارد شو الفكرة الوطنية ومنشأها ونموها وتدرجها وانبثاقها ؛ من المعتقد الدينى الذى كان يحرك إنسان العصور الوسطى إلى المعتقد القومى الذى أصبح يحرك ملايين البشر ممن يظلهم جشع امبراطوريات الاحتكار القائمة إلى اليوم .

يقول الناقد جود «كان الجو فى المدرسة مشبعا بكبلنج ، ومجد الامبراطورية ، حتى لقد كان كل منا نحن الصغار ، يتمنى لو أنه كبر سريعا ليقوم بحمل عبء الرجل الأبيض . إذ كانوا يصورون لنا الامبراطورية البريطانية على أنها شىء فريد فى التاريخ وشاهد بازغ من شواهد الوطنيـة الحقة التى لا تخبو . . وانتهى الأمر أننا أصبحنا نؤمن بأن تضحياتنا من أجل الامبراطورية ، إنما هى تضحيات من أجـل أشرف الرسالات ، وشاهد على التفوق الذى يتمتع به الجنس الأعلى . . الجنس الذى يعى دوره ويقبل على القيام به كما تفرضه عليه ميزاته العليا . . وقد كانوا يعلمونا أن المحافظة على هذه الامبراطورية ، إنمـا هى رسالة يدفعنا إليها ارتباط نبيل وكلمة الشرف . . حتى جاءنا فى هذا الجو صوت برنارد شو . . فإذا هو ينادى صارخا . . «كل عاقل يستطيع أن يدرك أن هذا النظام الامبراطورى الذى نفخر به ، هو نظام

يخالف الوطنية الشريفة الحقة لأنه يقوم على العدوان» . وأطاحت هذه النسمات من الآراء الحرة التى كان ينفثها فى عقولنا برنارد شو ونحن بعد لا نزال فى حماس الشباب .. أطاحت بيوت الورق من أحلامنا ، فلم نحاول بناءها من جديد ... » .

والحقيقة الثانية تبدو جلية واضحة من الحياة التى كان يعيشها شو فى طفولته ، فمن تلك الحياة خرج بكثير من الحقائق الدامغة التى تدين مجتمعنا الحديث، وبالتالى تحول إلى دعوى الاشتراكية واعتنق مذاهب الاشتراكيين .

وقد كان لدراسة شو وثقافته الواسعة أثر كبير فى تكوينه .. وعليها استطاع أن يتبلور ومنها أمكنه أن يبنى فلسفته التى جاء يفرغها ويحققها فى مسرحياته، حينما اكتشف أنه كاتب مسرحى وليس راوئيا أو ناقدا صحفيا .

فالوطنية والاشتراكية والثقافة هى الأساس عند شو ..

من بعد ذلك يأتى المسرح وفن المسرح ، وهو ما اكتشفه فى نفسه بعد أن عبر سنى الشباب إلى الأربعين .

استطاع برنارد شو ، قبل أن يصبح مسرحياً ، أن يكون روائياً فكتب خمس روايات فاشلة.. واستطاع أن يكون خطيبا مجادلا ، فظل قرابة العشرة أعوام يلقى الخطب والمحاضرات فى جميع الإندية والمحافل .. وكان يعتبر المفكر السياسى الأول لجميع الهيئات الداعية إلى الاشتراكية فى زمانه ..

ولهذا لم يكن من المعقول حين يكتب للمسرح ، أن يكتب للفن خالصا رغم أن دعوى الفن للفن كانت عماد الزعم السائد فى

عصره عن الأدب .. يقول .. « رسمت هدفى على أن أبدأ بغزو الواقع ومعاركه ... الحياة الواقعية .. » . . وذلك ماعبر عنه فى إحدى مشاهد .. الدون جوان » .. إذ يسأل بطلته آنا » ...

ـــ أتعتقدين أن السماء كالأرض ؟ ، . إن الناس على الأرض يقنعون أنفسهم بأن ما اقترفوه من آثام يمكن أن تمحوه التوبة.. وما قيل خطأ يمكن أن يزيله الاعتذار عن تكرار قوله . . وإن ماهوحقيقى يمكن إذ أجمعت على ذلك الآراء أن يستحيل.. كذبا!! . . كلا .. إن السماء هى مستقر أسياد الواقع.. ولهذا سأصعد إلى السماء ...

ولكن آنا تجيبه

ـــ لقد شبعت من كثرة مالقيت من الواقع على الأرض .. سأسعى إلى السماء من أجل السعادة ..

فينصحها دون جوان إذ كان هذا هو مقصدها أن تبقى فى النار..

ـــ النار هى مستقر الوهم الذى يضم الباحثين عن السعاده.. هى الملاذ الوحيد من الجنة. مستقر أسياد الواقع . ومن الأرض مثوى عبيد الواقع .. ثم يتبع ذلك قائلا ..

ـــ انا اخترت الاستمتاع بتأمل الشيء الوحيد الذى يهمنى ويعنينى ويفضل عندى كافة هذه الأشياء جميعا.. وهذا الشيء هو الحياة .. هو القوة الدائبة على السعى من أجل الحصول على قوة أعظم تزايداً لإدراك كنهها ..... ولكن لأى غاية ؟ !!

ـــ غاية هذا الإدراك خلق العقل القادر على أن يضم خيالا

رائعا يعين الحياة فى صراعها الدائب نحو الرقى والرفعة ..

ويقول جود ... « إن الشغف بالحرية والسياسة والاشتراكية عند شو كان يغلب على شغفه بالمسرح ومن أجل هذا فإنى لا أعتبره إلا فيلسوفا له موهبته المسرحية التى يستعملها لخدمة آرائه وأفكاره ومبادئه » وفى ذلك يجيب برنارد شو نفسه « الفن الجميل هو أعمق المغريات وأشدها أثراً . . وهو بذلك أصلح وسيلة فى الدنيا للدعوة إلى فكرة أو عقيدة، وقد لا يفوته فى هذا إلا المثل الشخصى للسلوك الفردى . ولذلك فأنا استغل المسرح كفن عال رفيع ، يحقق لى القدرة على عرض الأمثلة الحية التى يمكن أن توضح للجموع الغافلة معنى حياتهم الواقعية ومغزاها وبالتالى الوعى الصحيح بهذه الحياة ... »

وفى مكان آخر يصر.. « لايطالبنا الفن باحترامه إلا بمقدار تأثيره فى تهذيب طاقاتنا ومشاعرنا بحيث تتحول الرؤيا والسماع والشعور والذوق والشم بل وحتى اللمس، إلى أفعال واعية مدركة تمكننا من الوقوف بقوة فى وجه القبح والضوضاء وقذارة الملبس والهواء الفاسد . . وتدفعنا إلى أن نسر ونبتهج بالجمال ونهتم بالموسيقى والهواء النقى الطلق إلى جانب تأكيد إصرارنا ، كضرورة لراحتنا وهنائنا ! الحصول على الملابس النظيفة التى نرتديها والمأكل الصحى الذى نتناوله.. غير هذا، فالفن يجب أن يهذب إحساسنا بشخصيتنا وسلوكنا وإحساسنا بالعدل والمساواة ويرفع من قدر معرفتنا لأنفسنا ودقة تصرفاتنا ويحكم تقديرنا

الصحيح للأشياء بقدر ما يجعلنا لا نغتفر الضعة ولا نقر القسوة ولا نسكت على الظلم ولا نقبل سطحية التفكير ودناءة الفهم ...

ومن أجل هذا كان شو يقول فى اعتداد « أننى لست كاتبا مسرحيا عاديا وإنما أنا فنان متخصص فى كتابة المسرحيات التى تعارض كل ما اصطلح عليه الناس، لأنى أكتب وغايتى الوحيدة الواعية أن يؤمنوا بآرائى ومذاهبي وأفكارى التى لا يمكن أن تتفق مع حياتهم فى شىء وإلا ما كتبتها . . »

فالمسرح كان عنده وسيلة لغاية .. يقول موضحا موقفه من شكسبير والمسرح القديم عموما . . « من الطريف أن نقارن بين القيم القديمة التى أخذ بها شكسبير، وتلك القيم الجديدة التى تضمنتها مسرحياتى ومسرحيات إبسن . . لاشك فى أن هناك تباعداً فى المدى الزمانى . . ولكن . . مادامت الطبيعة البشرية لا تتعرض لتغير كبير على توالى الأحقاب فالرابطة المشتركة ستبقى قائمة دوامه بين جميع كتاب المسرح على تباينهم .. ورغم ذلك فهناك خلاف ساحق بل هو جوهرى . . فلم يكن شاكسبير صاحب مذهب أو برنامج إذ كانت موضوعاته كلها جاهزة أخذها من التاريخ والأسطورة وحولها بعبقريته إلى عمل فني رائع . . فى حين أننى وشيللى وفاجنر وإبسن نعتبر بالدرجة الأولى مصلحين اجتماعيين وأصحاب مذاهب ولا أظننا قد خرجنا عن ذلك فى يوم من الأيام.

. . . كان شكسبير كفنان صادق ، يتفق معى فى إحساسه بعقم وفساد كل شىء حوله .. ولكن شاكسبير لم ير من كل ذلك أى مخرج أمام الإنسان فانجرف فى التشاؤم بالمستقبل، وانتهى به

الأمر إلى مرارة ذميمة ما كان فى الإمكان تذوقها ، لولا الجمال الذى أسبغته عبقريته على فنه . . وما هكذا كانت تطرقى أنا وابسن وفاجنر وشيللى.. فقد تلمسنا ووجدنا لنا طريقا معبدا فى « وادى الظلال » .. وآمنا بأن الإنسان يوم يدرك حقيقة قواه يستطيع ولا بد حتما أن يخلص نفسه وينقذ مصيره ويتحكم فى مستقبله . . . »

وطبيعى أن يكون موضوع المسرح عند شو بعد هذا ، هو الإنسان المتحرر من سطوة القدر ، البعيد عن الخضوع لغير أحكام مجتمعه . . وقد وهب كل مسرحياته لمعالجة مشاكل هذا الإنسان ومجتمعه ، ولكنه قبل أن يشخصها فى المسرح يعرضها ويحللها فى مقدمات مستفيضة ترتكن على الإحصاء العلمى . وقد انفرد بهذا الأسلوب حتى كان أحيانا يكتب المسرحية ، وبعد أن ينتهى منها ومن مقدمتها ، يجد أن موضوعها لا زال فى حاجة إلى تمحيص فيضيف إليها خاتمة . . وقد انفرد بهذا الطابع . . إنما الذى عصمه من الخلط بين الكتابة الفنية والتحقيق العلمى ، أنه كان يعتبر فنه لونا من العلم . . فالتجربة الفنية التى كان يأخذ بها هى تجربة علمية أو بالأحرى تجربة لا تختلف كثيرا عن التجربة العلمية . . ذلك أنه لم يكن مثل إبسن أو تشيكوف يكتب عن الحاضر وعن الإنسان فى حدود ما ينتظره من تطور فى المجتمع الذى يعيش فيه ، أو فى حدود التطور الذى بلغه مجتمعه .. بل كان يكتب عن الإنسان ليدعوه ويستحثه ويدفعه الى تمهيد الطريق أمام مستقبله للخروج من هذا الحاضر . .

ومن أجل هذا لم يفرق شو كثيرا بين الكتابة للمسرح وبين الكتابة المباشرة للجمهور مادام في كليهما ما يحقق غايته وهي الدعوة لمبادئه بين أكبر عدد ممكن من الناس . . لذلك كان ينقطع أحيانا . عن الكتابة للمسرح ، رغم نجاحه ومكاسبه الضخمة منه ، لينصرف إلى تأليف كتاب عن الاشتراكية . .

من ذلك مافعله عام ١٩١٤ حين وقف يعارض الحرب مع قلة من مفكرى بريطانيا . . فقد ترك المسرح ليخرج كتابه عن « النظرة العاقلة إلى الحرب » . . ومن ذلك أيضا توقفه عام ١٩٢٨ على إقبال الازمة الاقتصادية العالميه التى زعزعت كيان العالم الرأسمالى ، عن الكتابة للمسرح وانصرافه إلى تأليف موسوعة « دليل المرأة الذكية لتعلم الاشتراكية » . . وفى عام ١٩٤٤ نراه وقد أشتد اقبال الجموع على السياسة وزاد شغفهم بالمسائل السياسية ينقطع لإخراج كتابه الأخير . . « مفهوم السياسة لكل فرد »

ولكن لا يجب أن نفهم من ذلك أن برناردشو المفكر السياسى والثائر الإجتماعى، قد غلب برناردشو الأديب المسرحى.. فالواقع أن الطبعة الخامسة من فولتير لم يطمسها الكربون أبداً . . ولقد أنتهى الداعية السياسى إلى أن يموت وهو إمام المسرح المعاصر بلا نزاع، وإنه ليقف اليوم فوق أعلى ذروة . جنبا إلى جنب مع كافة نوابغ الدراما . .

يقول بيرسون . . ولقد كان يندمج فى المحاضرات والمؤتمرات واللجان التى تعقد فى فروع جماعة الفابيان الاشتراكية لمدة لا تقل عن خمس ساعات يوميا . . وقد ظل مواظبا على هذا المجهود

المرهق من غير أدنى موجب ، عشر سنوات طوال ، مع أنه كان يستطيع لو أراد أن يستغل هذا الجهد الضائع فى الكتابة للمسرح ولكنه لم يفعل لأن الاشتراكية كانت بالنسبة له هى كل شىء فى وجوده » .

ويقول فران : من المحتمل أن شو كان سيشتهر سريعا لولا اشتغاله بالسياسة وانغماسه فيها انغماسا لا يصدق ولا يطاق . .

ويقول شيسترتون . « ها كم رجلا كان يستطيع أن يحوز المجد الفنى بين أعاظم الفنانين فيبزهم جميعا . . رجلا كان يستطيع أن يكتب مسرحيات يندر أن يجود بها عبقرى آخر يصر ويفضل أن يشتغل بالاحصاءات ويملأ عقله ويعبىء أحاسيسه بأجف وأقذع التفاصيل ، ليبحث المشاكل السياسية العابرة واقتصاديات صناعة السكر والصابون وماكينات الخياطة . .

فإذا رجعنا إلى شو نفسه . . قال « لا تظنوا أننى أؤمن بأن المؤلف الذى يحترف صناعة الكلام لا يستطيع أن ينقذ العالم بالكلام وحده » . .

ذلك أنه كان يؤمن فى قوة الفكر المادية وتأثيرها . . « لا على العقول الأخرى فقط . . وإنما على الحياة التى يعيشها الناس . . وبالتالى على المجتمع الذى يضمهم بين جنبيه » . . ويفسر ذلك مدللا « من السخف الظن بأن الأفكار والآراء التى كمنت وراء الثورة الفرنسية لم تلعب أى دور فى قيامها وتطورها وبلوغها ما بلغت . . بل من السخف أن ننكر أن هذه الأفكار لم تغير

حياة الناس .. كل الناس فى كافة البلدان .. بعد أن انتهت الثورة التى ولدتها ... » ثم يضيف .. « وكذلك لعبت أفكار المسيح عن كيف يجب أن يعيش الناس، دورا كبيرا فى تغيير طرائق حياتهم بعد عصره .. فقوة الفكر لا تكتفى بأن تشيع فى زمانها بل إنها تسود دائما وإلى النهاية على ما عداها من القوى » .....

« ولهذا تلاقى كل سلطة قاهرة فيما تزاوله من أساليب القهر والكبت والتحطيم وأسلحة النفى والسجن والتشريد والتعذيب تلاقى فشلا حتميا مؤكدا أمام القوة المجردة للفكر الحر .. يستحيل إذن إغفال ما يحدثه الفكر الحر من تغيرات .. لا على عقول الناس وإنما على الحياة البشرية ذاتها .. لقد أثر الفكر الحر دواما على كافة الناس فى كل عصر وفى كل أمة فكان يحركهم ويدفعهم إلى تغيير حياتهم والتطور بها لمستويات أفضل وأرقى » .

ولأن الفن هو أسمى ثمرات الفكر، فقد كان من المستحيل على فنان كبير مثل برنارد شو أن يهدر ما يمكن أن تدره ثمرات فكره من الخير والحق والجمال، على حياة الناس ومصيرهم ومستقبلهم . ولذلك، فحين تقدم دعاة الفن للفن فى عام ١٩٢٥ ومنحوه « جائزة نوبل للأدب » قال شو فى سخرية لاذعة : « لا بد أننى كسبت اللوترية هذا العام بالذات لأنى لم أكتب خلاله شيئاً » .. وكان يقصد أنه لم يقدم مسرحية أخرى من مسرحياته التى يهب فيها فنه لخدمة الحياة ولخدمة الإنسان ..



طرد جد جوركى لأبيه من الجيش نظرا للمعاملة الوحشية التى كان يعامل بها جنوده، وكان ضابطا قيصريا عاتيا حكم عليه بالنفى مرارا إلى سيبيريا ، لاتهامه بالتسبب فى قتل الجنود أثناء التمرين . فلما تقاعد إلى الحياة المدنية، لم يجد أمامه خيرا من والد جوركى ليزاول عليه قسوته. فهرب والد جوركى إلى سبيريا وظل يضرب فى أصقاعها حتى مات الجد العجوز فحط رحاله على (الفولجا) مقيما فى مدينة نوفجورد . وهناك اشتغل صبيا فى محل لصناعة الأثاث وتغطية الغرف بالورق ، فوقع فى حب أم جوركى ، وكانت ابنة لرجل يسمى كشرين صاحب مصبغة تجاور المحل الذى كان يشتغل فيه. ولما تم قرانه عليها ، انتقل ليعيش مع أهلها . وفى منزل عتيق

فى شارع بغيض من شوارع نوفوجورد ولدت له عام ١٨٦٨ إبنا يسمى ألكس أو ألوشا .

فكأن جوركى والحال كذلك خرج من كنف أسرة تقبع فى أسفل درك فى الطبقة الوسطى، من جد ضابط طريد من الجيش من ناحية أبيه . وجد صاحب مصبغة صغيرة من ناحية أمه .

ولم تمر أعوام على إقامة والد جوركى مع أهل زوجته حتى كان قد طفح به الكيل الذى طفح به قبلا مع الضابط القديم . فقد كان أهل عائلة زوجته أشراراً غلاظاً وكأنهم خرجوا هم الآخرين من سلالة ضباط على الاستبداد . وجاء يوم رمى به شقيقا زوجته ، بغية قتله ، داخل حفرة ثلج عميقة فما أن استطاع انقاذ نفسه ، حتى حمل زوجته على الهروب معه بولديهما الصغيرين وعاد من جديد يضرب فى البطاح مع زوجته وطفليه ،فرسا به المطاف فى استراخان حيث نجح فى الحصول على عمل .

كانت حياه قاسية بشعة تلك التى عاد إليها الطفل الصغير حتى أحس وكأنه قد وقع فى هوة عميقة لا فكاك منها . وكره ألوشا من أول يوم الحياة التى يصفها أحياؤها بأنها تلخص الرفاهية « داخل بيوت من الحجر الأبيض تضم ساكنين من الحديد لا من اللحم والعظام» .

ذلك أن هؤلاء الحديديين المغلقين لم يكونوا يفكرون فى أبعد من أنوفهم وكانت حياتهم البغيضة هى وحدها عندهم الحياة الحقيقية الأبدية التى لاقرين لها ولا بديل . فنشأ الطفل على

كراهية صغائر الطبقات الوسطى ومشاغلها التافهة حول المال والمتاع والأثاث والرياش وما إليها من وسائل العيش التي كانوا يسخرون كل ملكاتهم ويهدرون أعمارهم في اقتنائها .

ورغم ذلك كان هناك بجانب هذه التعاسة نوع من السعادة تتراءى فيها الحياة وقد خلصت من كل هذه الرغبة في الاقتناء . وكانت هذه السعادة تهب على جوركي من جانب الجدة العجوز « اكولينا ايفانوفانا » التي تعتبر أحب شخصية إلى قلوب القراء في كتاب « طفولتي » . من هذه المرأة رضع الطفل إيمانه بالسعادة الإنسانية فكانت خير واق لروح الصبي . إذ أورثته ماعرف عنه من تفاؤل دائم قوي وإيمان عميق جارف بالحياة ورسالة الانسان فيها . كانت الجدة تحزن لما يصيب كل إنسان ولها شغف بالقصص تحيكها كالغازلة . ومنها أخذ جوركي عطفه الكبير على الناس ومعرفته الدقيقة بتعاستهم وشقائهم ورغبته الملحة في إسعادهم . كانت قصصها هي كتابه الأول غير المكتوب الذي قرأ فيه الحياة ، كتاب أحبه جوركي وظل يعتز به حتى نهاية العمر .

وكذلك تأثر جوركي بمربيته وأقاصيصها ، فقد كانت جريئة ثاقبه في نظرتها الى الحياة والناس ، وكانوا جميعهم في نظرها أشرارا بقدر ما كانوا في نظر جدته تعساء مساكين — كان فيهم القاضي الذي يفصل في حياة الناس كمن يمزق ثوبا من القماش أو يقطع قطعة من اللحم في بساطة ونشوة وعدم مبالاة — وصاحب الضياع الذي لا مبرر لقسوته ولا داعي لجوره على مزارعيه

والتاجر الذى بلغ حبه للكسب أن كان يبيع زوجته وأطفاله حتى تصل أرباحه إلى أضعاف أضعافها .

وكل هؤلاء البؤساء وكل هؤلاء الأشرار قابلهم جوركى فى طريق الحياه فى كل يوم وفى كل دقيقة . ولكن هذه القصص أيضا كانت تحكى عن أناس خيرين . وفى ذات يوم وقع الطفل على أحدهم ، جاء رجل واستأجر غرفة قريبة من المنزل وكان يؤدى خدماته لكل الناس بدون مقابل . لم يكن يأخذ عما يفعل مالا وكان يكتفى بكسبه من عمله . لا بد وأن يكون فى الحياه رجال على شاكلة هذا الرجل ، وفى سبيل لقائهم صمم ألوشا ، على ألا يقيم مع هؤلاء الذين لا يختلفون عن أشرار الأقاصيص .

كان لا بد من الرحيل إلى أى مكان ، لابد من التحرك وإلا فالموت فى هذا الركود . وهيأت له ظروف حياته أن يتحرك بسرعة ففى العاشرة ماتت أمه وخرج جوركى ليواجه الحياة طفلا .

وبدأ يعمل من أجل القوت فاشتغل بالتدرج بائعا جوالا ، ثم فى مخزن أحذية ، ثم ماسح أطباق فى سفينة نهرية ، ثم صبى لحرفى نجار ، ثم صياد للفراشات فى الحقول . أشتغل لحساب مختلف أصحاب الأعمال ففقد حريته من البداية وكان يبتعد عن جدته شهورا طويلة جريا وراء القوت .

لكنه وجد أشياء أخرى تمسكه بالحياه — وجد الكتب — ويوم دخل عالم الكتب أنتقل من التعاسة إلى حياة كبيرة عامرة كلها سعادة وكلها تفتح ، وكان أول كتاب قرأه جوركى أقاصيص

أندرسون ، ومن حسن الحظ أن وقع على هذا الكتاب لأنه بعد ذلك لم يكن ليقع على مثيله. فقد كانت ظروف حياته تضطره لقراءة كل مايقع بين يديه بدون اختيار أو مفاضلة . يحصل عليها من أيدى أصدقائه ومعارفه أو يشتريها من فوق الأرصفة :

وأول من أعانه وشجعه على القراءة هو طباخ السفينة الذى أشتغل تحت إمرته. كان يمده بالكتب فيلتهمها فى نهم ويفضلها على الطعام ، ولكنها كانت كتبا تافهة .. قصص بوليسية وحكايات فارغة من نوع رخيص . ثم ساقت اليه المصادفات قصصا لبلزاك وفلوبير ، فكانت تشوقه فيها البساطة ، بساطة التعبيـــير وبساطة العرض وبساطة الفكرة، وكان هذا هو أول ما أدركه عن حقيقة الفن الصحيح ، وشيئا فشيئا قرأ بوشكين وجوجول وترجنيف وليرمونتوف وسابقيه من العباقرة الروس .

كانت الحياة فى نظر جوركى زنزانة فى سجن . والكتب هى غناء العصافير يصل إلى آذانه من خلال القضبان، وازدادت الحياة قسوة وازدادت هواية جوركى للبحث والدرس. ونصحه صديق أن يرحل إلى قازان حيث توجد الجامعة . فغادر مسقط رأسه فى الخامسة عشرة من عمره جريا وراء الثقافة وبحثا عن المعرفة .

وفى قازان أستعصى عليه الالتحاق بالجامعة لأنه لم يكن يجد قوت يومه ، لكنه التقى فى هذه المدينة بما كان له أكبر الأثر فى حياته من كل دراسة جامعية ، فهناك لقى الباعة الجوالين ومنظمى الحركات الثورية والأفاقين ورجال البوليس والطلبة والثوريين. والتحق جوركى بهذه الجامعة الحية فتعلم فى قاعاتها الرحبة المليئة

بالحركة والنشاط مالم ينسه قط من دروس ، وسكن بإحدى الخرابات المهدمة وأشتغل فى مخزن بجوار الشاطىء . وكانت رفقته الجديدة رفقة عجيبة حقا ، بحارة وحمالون ونشالون وجميع سكان القصر البللورى أبطال مسرحيته التى سميت بهذا الإسم لأن المسكن كان مفتوح النوافذ وبغير ضلف خشبية . وكانت هذه هى بؤرة تشالى كازان . فيها يجتمع الطالب المرفوت مع اللص الشارد مع الخادم ،مع المحتال.. جماعة لا تربطهم من ماضيهم صلة ويربطهم فى حاضرهم الجوع والتعطل وشظف العيش .

وهؤلاء فضلهم جوركى على سكان المنازل المغلقة النوافذ من الحديديين أصحاب الدور الحجرية . كانو يسكرون ويعربدون ويسرقون ولكنهم لم يكونوا وضعاء النفوس أشرار النيات بل كانوا أتقياء خلص وسليمى الجوهر ينظرون بازدراء واحتقار إلى من يسمونهم أفاضلهم وأسيادهم المزعومين .

وفى ذات يوم صحبه أحدهم إلى محل بقال صغير وكان صاحبه أندريه ديرنكون ثورى يتأجج حماساً . كان يبيع السكر والحلوى والصابون ويدفن فى غرفة صغيرة خلف حانوته الكثير من المطبوعات المصادرة .

ومن هذه اللحظة تغيرت قراءات جوركى فاستعاض عن القصص والمغامرات الخيالية كتبا علمية تبحث فى الفلسفة والاقتصاد والسياسة وكلها تفيض بالآراء الثائرة فكان يزدردها بنهم متزايد. وعن طريق هذا الحانوت أتصل جوركى بجمعيات الطلبة الثورية ومعهم درس التاريخ والاقتصاد السياسى، وقرأ البحوث والمقالات

التى تحدد مصير العاصفة الروسية المرتقبة . وفى هـــذه الجامعة الأهليه بدأ بآدم سميث ثم قرأ لشير نشيفسكى ووقع على فصل مخطوط من فصول رأس المال لـكارل ماركس .

وكان حتما أن يهاجم البوليس مسكنه، لـكنهم لحسن الحظ لم يعثروا إلا على مقالات أدبية ودراسات فى الأخلاق والشعر وعلوم الجمال ،ومع ذلك أخطرت إدارة بوليس قازان فى تقريرها إلى بوليس نقوجورد المحلى : أن هذا العامل الأجير الذى يشتغل بمختلف الصنع يقرأ العلوم ويدون المذكرات العلمية : الأمر الذى جعله موضع شبهة السلطات منذ هذا التاريخ . أما لدى الطلبة والمثقفين فقد برز جوركى لأنه كان أكثر فهما وإدراكا للحياة من أقرانه بحكم طبيعة حياته الكادحة إذ لم تأت كـتب الاقتصاد بشىء جديد عليه فى وصفها لحياة العمال الأجراء فقدكان هو عاملا أجيراً ويحس بأ كـثر ممـــا بين صفحاتها من حقائق .

وهكـذا التحق جوركى فى قازان بأصعب الجامعات وأقساها وأقومها ، جامعة الحياة.. حياة الجوع التى تصارع الحياة ذاتها .

ولـكن كيف كان يعيش ؟؟ كان يقطع معظم ساعات النهار جائلا جائعاً يبحث عن القوت وفى المساء يتسقط مأوى لجسده المتهالك فينام فى الخرائب ووسط العربات وتحت أسقف القوارب الصغيرة المهملة المقلوبة. وهذه الحياة وصفها أبلغ وصف فى قصته الصغيرة الرائعة «ليلة من ليالى الخريف» ثم استطاع أن يجد عملا

يدر عليه ثلاث روبيلات فى الشهر ، فاشتغل مناولا فى مخبز غائر تحت سطح الأرض سورت فتحاته بالقضبان الحديدية حتى لا يسهل على الخبازين تهريب الأرغفة للفقراء كما كان يظن صاحبه . وقد رسم لهذا المخبز ولعماله ولحياتهم فيه صورة خالدة فى قصته المعروفة « ستة وعشرون رجلا وفتاة » — كان جوركى يشتغل بمعدل أربعة عشر ساعة يوميا ويقوم بمجهود جسمانى كفيل بهدم الصخر . حتى كان يحس وكأن البناء الذى يقع المخبز فى أسفله قد أقيم بطبقاته الأربع على كتفيه وحده : ولم يدهش جوركى للمعاملة القاسية التى لقيها فى هذا المكان لأنه كان قد تعود على ذلك من زمن . وإنما كان يدهشه ويثيره خنوع الخبازين وتزلفهم لصاحب المخبز رغم مايلقونه على يديه من عنت . وذات صباح ضبطه « سيمونوف » صاحب المخبز وهو يقرأ كتابا لتولستوى فانتزع الكتاب من جوركى وأخذه ليرميه فى النار ، ولكن جوركى هب فقبض على ذراعيه ونهاه عن ذلك فى إصرار وغضب ثم بصق فى وجهه . وطبيعى أن ينتهى الأمر بطرده من هذا المخبز ولكن الظروف هيأت له مخبزاً آخر كان يديره خباز ثائر ، فالتحق به عن تجربة سابقة فى كلا الجانبين « الإعداد للثورة وإعداد الرغيف »

ثم جاءه خطاب من نفوجرود يخبره أن جدته ماتت ، وهكذا فقد أعز وأقرب الناس فى الوجود إلى قلبه وصاحب هذا العام إرهاب ضخم فسلطت الحكومة القيصرية جنودها وقوتها على الكل وخيم على حياة الناس ما دفع البعض إلى الانتحار ومنهم الكثير من أصدقاء جوركى . وفى ١٤ ديسمبر سنة ١٨٨٧ نشرت إحدى جرائد كازان الخبر التالى « فى ١٤ ديسمبر الجارى

وفى الساعة الثامنة مساء وجد ألكس ماكسيموف وهوعامل من أهالى مدينة نفوجرود صريعا على قارعة الطريق فى الشاطىء الغربى لنهر كازانكا . ومن التحريات التى جرت أنه قد أطلق على نفسه الرصاص قاصدا الانتحار وقد نقل الشاب فى الحال إلى المستشفى ووجدت فى جيبه مذكرة أقر فيها أنه لا يلوم أحد على التسبب فى انتحاره »

وقد شرح جوركى السبب الذى دفعه على الانتحار بعد ذلك بربع قرن فى قصته « حادث فى حياة مكارى » ومضمونها أن الأوضاع التى كان يعيش فى ظلها كانت قد بلغت حدا لا يطاق وأنه أصبح مخيرا بين أمرين، إما الانتحار وإما ارتكاب جريمة قتل تطوح به إلى سبيريا ، وقد فضل أقصر الطرق .

وخرج من المستشفى إلى المخبز ، غير أن إقامته لم تطل هناك كثيراً ، فقد كان يزوره من آن لآخر صديق قديم هو ميكائيل روماس العامل بالسكة الحديد سابقاً وأحد الثوار القدامى الذين عادوا من النفى بعد عشر سنوات من العذاب فى أصقاع سيبيريا. وكان روماس متعلقا بجوركى مؤمنا به ، فدعاه للانتقال معه إلى قريته الصغيرة الواقعة على ضفاف الفولجا . وكان قد افتتح بها حانوتا صغيراً يرتاح اليه ويهجع من عناء السنين الطويلة التى قضاها سجينا. وذهب جوركى ليقيم معه. كانت هذه أول فرصة أتيحت لجوركى ليعيش وسط الفلاحين . فكان كل يوم يمر يضاعف من آلامه ويزيد من عنائه . كانت جميع الكتب والمقالات التى قرأها عن الفلاحين تصورهم على أنهم قوم يعيشون فى هدوء ودعه

يحلمون ويرتعون فى هناء وصفو بين مباهج الطبيعة وصفائها فرأى ماينافض ذلك على طول الخط. رآهم يعيشون فى حطة وتأخر يخيم عليهم الجهل وتطحنهم الفاقة وتمزق العلل أجسادهم ومغلولين فى حقد أعمى وطمع كطمع الذئاب تقتتل عائلاتهم وتقتل بعضها بعضا من أجل أتفه الاسباب والدوافع . من أجل قطعة صغيرة من الأرض لا تساوى حياة حصان من الخيول التى يستعملها أسيادهم فى الصيد .»

وكان أغنياء القريه يكرهون صاحبه روماس لأنه يقف إلى جانب الفلاحين ويشجعهم على العصيان . فحاولوا التخلص منه بقتله رمياً بالرصاص مرارا .ولما فشلوا أحرقوا له حانوته الصغير وكادوا أن يحرقوا جوركى الذى كان يقيم داخله فهرب فاراً، وعاد ليبحث عن سقف جديد يظله ، وترك القرية سريعا مع صاحبه وعما شطر استراخان ثم طرقا شواطىء بحر قزوين . هناك تمكن جوركى من أن يجد لنفسه عملا فاشتغل صياداً بعض الوقت ثم قفل عائدا إلى قازان

كان المخبز قد أغلق بأمر السلطات واختفى الكثيرون من أصدقائه بعضهم هرب وبعضهم أدخل السجن . فلما عجز عن أن يجد مكانا ينام فيه اشتغل حارسا ليليا باحدى محطات البضاعة بالسكة الحديد. كان يحلم فى صغره أن يعيش خارج المدينة فى كوخ صغير على قارعة الطريق الزراعى فسره أن يتحقق حلمه بهذه السرعة المباغتة . ولكنه كان يدفع ثمن حلمه غاليا. فقد كان عليه أن يراقب المشحون من الدقيق والقمح والبقول وغيرها من البضائع ويحفظها من البوار والسرقة التى كانت تتعرض لها بواسطة فرسان القوقاز

وناظر المحطة ذاته، الذى لم يكن يفوته أن يأخذ نصيبه من الغنيمة. فلم يكن يمر قطار محمل بالبضاعة إلا ونقب ناظر المحطة مشحوناته ليأخذ منها ما يستطيع ويبيعه فى سوق القرية . ولم تطل إقامة جوركى فى هذا المكان أكثر من شهور قليلة خاصة بعدأن كانت زوجة ناظر المحطة تستدعيه إلى المنزل وتكلفه بغسل الأوانى وتنظيف المنزل ورش الحديقة .

وصف جوركى هذه الحقبة وصفا شائقا فى قصته « الحارس » فقال : « كان يراود حلمى دائما أن أقوم بعمل مجيد وأن أكلف فى الحياة برسالة رفيعة ، فإذا بى أرانى أعين لحراسة الزكائب والأجولة وصناديق الخشب ، ولكنى مع ذلك منحت الوقت الذى أستطيع أن أقرأ فيه شكسبير وهاينى وغيرهما » . وكثيرا ما كنت أقطع الساعات قلقا لسرقة متوقعة أو هجوم مباغت فأظل مستلقيا على ظهرى فوق البضائع وقد أصيب عقلى بالشلل التام». كان يحز فى نفسه أن تضن عليه الحياة حتى فى هذا المكان القصى بفرصة للقراءة الهادئة المتصلة . ثم نقل إلى محطة بعيدة ورقى إلى وظيفة مراقب وزان . وفى هذا المكان الغارق وسط الأحراش شعر جوركى بأنه يختنق سما ولم يكن لديه من الكتب ما يقرأ . لقد فقد هاينى وشكسبير وفقد صلته بالعالم العلوى الذى كان ينتشله من هذه الأقذار .

وذات مساء ، تسلم جوركى إخطارا بأن صديقا له قد انتحر وأوصى قبل انتحاره بإعطاء كتبه إلى ماكسموفتش « القارى»

النهم حتى يشبع نهمه ، ولم يفرح جوركى بهذا الرزق الطارىء الجديد . فلقد أحزنه أن لا يموت من الناس إلا أفضلهم . وكان جوركى قد بلغ الثانية والعشرين وحل الوقت الذى يلزم أن يتقدم إلى الخدمة العسكرية فغادر هذه المباءة . ورحل إلى مسقط رأسه فى نفوجرود. ولما لم يكن لديه ما يكفى من المال،قطع هذه المسافة الشاسعة على قدميه عبر أراضى ألدون مارا بالقرى والمدن والحقول يؤدى خدمة هنا وخدمة هناك ليكسب القوت الذى يحفظ به أوده حتى يصل إلى موطنه .

كانت هذه أول رحلات جوركى عبر امبراطورية آل رومانوف الشاسعة. وانتهت ببلوغه موسكو. فما كاد يصلها حتى أسرع جريا إلى حيث يعيش تولستوى ، ولكنه لم يجد الكاتب الكبير فى منزله وإنما وجد زوجته ، ولم يسع الكونتيسة صوفيا أندريفينا إلا أن تدعو هـذا الغريب المتحمس للقاء زوجها إلى المطبخ، فقدمت له قدحا من القهوة وبعض الحلوى . ولم يستطع جوركى أن يقيم فى موسكو حتى عودة تولستوى ليراه . كان يحلم بلقاء تولستوى ولكنه أجبر على الرحيل ليقدم نفسه إلى الاقتراع فى نفوجرود .

يصف جوركى هذه النقطة من رحلته فيقول : « كنا فى سبتمبر وكانت الأرض يغطيها البلل من أمطار الخريف والريح الباردة تهب فتلفح الحقول النضرة بينما الغابات تشع بالألوان الزاهية من الأزاهير والنبات . كنا فى أجمل فصول العام،ولكنه كان أتعس الفصول لمسافر يقطع الرحلة على قدميه وخاصة إذا كان ينتعل حذاءاً ممزقا . وحينما بلغت محطه بضائع موسكو أقنعت الحارس

بان يساعدنى على ركوب عربة من عربات الماشية التى شحنت فيها ثمان بقرات للذبح فى «سلخانة» نوفجرود .

وكان بينها خمس بقرات هادئة نسبيا ولكن يبدو أن الثلاثة الباقية لم يرقها منظرى لسبب لا أعلمه ، فقد أصرت على تنغيص إقامتى بينها طوال الطريق . وكلما كانت تنجح إحداها فى إلحاق الأذى بى أراها تنخر الإثنين الأخريات فى رضى وانشراح . أما حارسها الآدمى وكان قصيرا وأرجله ملتوية وقد أطلق لحيته فتهدلت ، فقد وكل إلى مهمة إطعام رفاقى فى السفر فكان يمدنى فى كل وقفة يقفها القطار بحزم البرسيم من خلال الفجوة ويأمرنى صارخا «اطعمها» — وقطعت أربعة وثلاثين ساعة أعيش فى رفقة هذه البقرات» . ومع ذلك لم يبلغ نفوجرود خالى الوفاض بل دخلها وتحت إبطه مسودة لقصيدة طويلة من الشعر كتبها أثناء تلك الرحلة الشاقة .

وتقدم إلى القرعة فرفضوه فى الجيش ، قال الطبيب الحربى عنه : «لا يصلح لضعف رئتيه» وخرج من إدارة القرعة ليجد فى البحث عن عمل ، وفى هذه المرة اشتغل صانعا بإحدى محال تعتيق الخمور ، وكان يثير عجب النظارة فى الشارع بأرديته العجيبة المتناقضة إذ تعود أن يلبس قبعة كبيرة من قبعات ممثلى الأوبرا وسترة لأحد الطباخين ، وبنطلون أزرق قديم لضابط من ضباط البوليس أو الجيش ، وكذلك أثار أنظار السلطات البوليسية ولكن لأسباب أخرى أدق .

كان هناك نفر من الشباب الثائر قد استوطن نوفوجرود

وهرب من قازان بعد الاضطرابات التى وقعت فى جامعتها . بدأ الرجل الذى يرتدى سترة الطباخين وبنطلون الضباط يرتاد الأماكن المشتبه فى أمرها . ثم إنه قبل أن يسكن مع اثنين من الشبان الهاربين من مراقبة البوليس فى قازان ، أحدهما مدرس سابق والآخر جامعى مطرود من الجامعة . وهكذا تأكدت شكوك السلطات فى خطورة هذا البهلوان وبدأت العيون تترصده هو وزميليه . وأرسل بوليس نفوجرود نشرة إلى مختلف البقاع التى يحتمل أن يكون قد قدم منها هذا الصانع «الكس بيشكوف» ثم قبض على الطالب الذى كان يسكن معه وأودع جوركى السجن غير أنه لم تثبت عليه أية جريمة فأطلق سراحه ونصحه ضابط السجن وهو خارج بأن يقلع عن الكتابة والكتب ويلتفت إلى عمله. ولكنه أبى وأجابه بأنه لن يكف عن القراءة والاطلاع والكتابة فيما يحلو له من مواضيع ما دام القانون لا يعاقبه على ذلك .

وكانت نتيجة هذا العناد أن أعيد ليمضى فى السجن شهرا طويلا . .

وقبل أن يطلق سراحه لقيه رئيس الشرطة فأشار عليه بمداومة كتابة الشعر لأنه قرأ قصيدته وأعجبته ثم نصحه أن يقابل «كورولينكو» وكان فلاديمير كورلنكو الكاتب المعروف يعيش أيامها فى نفوجرود وقد اشتهر فى جميع أنحاء البلاد بكتابة القصة والنقد .

خرج جوركى توا ليقابل كورلينكو وأعطاه القصيدة بعد أن

قرأ عليه بعضا من أبياتها وخطأه الكاتب الكبير فيها . وأبقى كورلينكو القصيدة عنده ولم يردها إلا بعد أيام «وكتب فى غلاف الكراسة التى قدمها جوركى داخلها العبارة التالية « من الصعب تكوين رأى عما يمكنك كتابته من هذه الأغنية ولكنى أعتقد أنك موهوب . أكتب شيئا عن تجاربك وأطلعنى عليه . إن حكمى على الشعر لا يعتد به وقد وجدت شعرك صعبا على فهمى رغم أن بعض سطوره حى وقوى . . »

وصمم جوركى أن يقلع عن الكتابة شعرا ونثرا . وكان جوركى جادا فى عزمه فلم يخط حرفا طوال العامين اللذين قضاهما فى نوفجرود . ولكنه كان فى حاجة إلى غواية تسليه وتعزية عن دحرجة البراميل داخل مصنع التخمير . وأنخرط فى سلك المثقفين من جديد ولكنه نفر منهم كعادته وبدأ يفكر فى تغيير طريقة حياته . إنه يريد شيئا آخر . إنه يريد أن يحس بالحياة الحقيقة وما تفيض به من مشاعر جارفة صادقة ... لا بد وأن يغادر المدينة ويذهب إلى مكان آخر . ليسافر توا فى رحلة طويلة . وحاول الالتحاق برحلة استكشافية كانت قاصدة إلى سفوح البامير ولكنهم لم يقبلوه . وجلس ذات أمسية من أمسيات الخريف المحببة فوق إحدى التلال المشرفه على حوض الفولجا يرقب الخضرة يداعبها النسيم فى أسفل الوادى قرب النهر . وجاء رجل فجلس بسكون فوق المقعد المجاور لمقعده . وكان هذا القريب هو كورلينكو وسرعان

ماعرف جوركى فسأله . . هل كتبت شيئا؟ أجابه جوركى : لا : فأبدى كورلينكو أسفه قائلا . : هذا شىء محزن ولكنى لازلت أعتقد أنك موهوب ومع ذلك فأنت لست فى حالة طبيعية .

وكانت هذه هى الحقيقة . لم يكن جوركى فى حالة طبيعية ... وبعد أيام ترك المدينة كما ترك محطة السكة الحديد قبلها بسنتين ، تركها ليجوب أنحاء روسيا مرة ثانية — وفى هذه الرحلة التالية تبع جوركى مجرى الفولجا فعاش بعض الوقت فى رستوف حيث كان يشتغل حمالا فى مينائها بمعدل خمسة عشر ساعة فى اليوم، ويعيش فى حجرة تحت الأرض قريبة من الشاطىء . . ثم ترك روستوف ليجوب أوكرانيا ومنها إلى بساراابيا حتى بلغ ضفاف الدانوب وتوقف عند حدود روسيا رومانيا . وبعدها قفل راجعا على قدميه أيضا فاتجه نحو القرم وعبر القوقاز بمحاذاة البحر الأسود . وقطع فى هذه الرحلة آلاف الأميال فاستغرقت منه عامين ، قطعها والجوع يتابعه خطوة بعد خطوة. وقد أعتبرها جريمة أن يعيش فى كل دقيقة مهددا بالموت جوعا ولكن جريمة الجرائم أن التغلب على الجوع كان يحول بينه وبين التفكير والكتابه.

لم يكن يخفف من وقع ذلك كله إلا أن المرء كان يقابل الناس ويحاول أن يفهم طبائعهم،إذ لا بد أن يدرس الإنسان الطبيعة البشرية فى كل طرقة من طرقات الحياة . يدرس التجار كما يدرس المتشردين ويدرس رجال المطافىء كما يدرس اللصوص والبغايا . وهكذا كان يتغذى عن الجوع والإرهاق فى العمل

بدراسة الناس وطبائع الناس وكثيرا ما كان يعرج فى طوافه فيترك الطريق العام ليقيم فى قرية أعجبه واحد من أهلها ودفعه إلى دراسة الآخرين من أهل الريف فى قراهم .

وفى ذات مرة سمع أن هناك اضطرابات فى مدينة كان يسير قريبا منها هى مدينة : مايكوب : التى ثار أهلها على قسوة جنود القيصر عليهم بمناسبة أنتشار وباء معد بينهم . وأستدعيت فرق القوزاق إلى المدينة لتسكينها فانزل الجنود بأهلها القتل والتخريب الفظيع . وأسرع جوركى إلى المدينة وفى الحال أثار بوجوده شكوك السلطات . فقبض عليه وأودع غرفة ضيقة بثكنات الجند لأن السجن كان غاصا وليس فيه موضع لقدم . وأستجوبه أحد الضباط فسأله عن سبب حضوره إلى مايكوب وهو يعلم بوجود اضطرابات بها .

فأجابه جوركى : إننى أريد أن أعرف روسيا لقد جئت لأدرس حال بلادى : — فأجابه الضابط : لكن هذه ليست روسيا. إنها زريبة خنازير ! ! وبعد ذلك رفض اطلاق سراحه ، من ناحية لأنه عاطل ومن ناحية لأنه يحمل كتبا وكراسة بها قصائد من الشعر وينظر إلى جنود القيصر نظرة احتقار . ولما لم يكن هناك أتهام جدى مباشر يمكن أن يوجه إليه أطلقوا سراحه فى النهاية بعد أيام وكانت هذه هى المرة الثانية التى يقبض فيها على جوركى .

وأنتهى به المطاف فى القوقاز بالوصول إلى تفليس وهناك

أيضاً كانت الحياة شاقة صعبة ، ولكنه وجد له فى المدينه أقرانا يشاركونه الميل والهواية . والتقى ببعض المثقفين فأعجبه مسلكهم . ثم اوقعته الظروف فى صداقة رجل أدرك قيمة مواهبه واهمية رسالته وهذا الرجل : الكسندر كالوزنى : ثائر عجوز خرج من السجن وهجع فى تفليس وكان صاحب قدرة على الاتصالات والتفهم والحكم على الأشخاص والملكات . ثم إنه كان إنسانا كبير القلب يحب دائما أن يكتشف المواهب التى عند الآخرين ويدفعهم إلى تنميتها واستغلالها. وفى أول مقابلة له مع هذا الرجل قص عليه جوركى طرفا من رحلاته الواسعة خلال سهول روسيا المنبسطة فنظر إليه كالوزنى فى صمت ورأى أنه لا يجالس شابا عاديا يمكن أن يكون مجهول المصير أو رجلا ملولا لا يستقر به مقام . إن فى قصصه شيئا يدل على النبوغ والتفوق. وتحولت المعرفة بينهما إلى صداقة عميقة ورأى كالوزنى أن جوركى لابد أن يصبح يوما ما من أعلام الأدب فكان يقول: اكتب عن هذا كله . لا تنقطع عن الكتابة أبدا . أكتب عن كل ما رأيت : . وصار يؤكد له يوما بعد آخر أنه سيصبح أديبا كبيراً. وكتب جوركى وكتب ولكنه لم يكتب ما رأى بل كانت تخرج منه الكلمات مشابهة لتلك التى كان يقرأها فى الكتب مثل أشعار بيرون الإنجليزى وليباردى الإيطالى . وكانت النتيجة أن كتب غير ما رأى : وفهم كالوزنى السر فكان يطالبه بالاقلاع عن ذلك ويلح عليه: اكتب عن كل ما رايته فقط ولا تكتب عما قرأت.

وجلس يوما ليكتب فتذكر الأسطورة التى سمعها وهو يجول بيسارابيا فى معسكر للغجر من فم غجرية عجوز باسم «ماكارشودرا» — وفكر جوركى فى ان يكتب مقابلته مع الغجرية العجوز فى قالب قصة . وأخذ كالوزنى الرواية التى خطها وقدمها إلى رئيس تحرير مجله « القوقاز » أهم المجلات فى تفليس فأعجب بها الرجل. لكن شيئاً واحداً كان ينقصها هو إمضاء المؤلف . فلما طولب صاحبنا بتوقيع اسمه بادر وكتب فى غفلة وهو جالس بمكتب رئيس التحرير تحت آخر سطر فى قصته الامضاء التالى « ماكسيم جوركى » أى مكسيم « المرير » .

وفى سبتمبر سنة ١٨٩٢ ظهرت أول قصة مطبوعة لجوركى ولما حل الخريف غادر جوركى تفليس عائداً الى نفوجرود حاملا معه ذكرى عزيزة لم تفارقه حتى نهاية العمر . ذكرى كالوزنى أول من اكتشف فيه هذا الكاتب الشعبى الكبير الذى تعتز بإنتاجه الأجيال .

ولكن جوركى لم يرجع وحده فقد صحبته أولجا . المرأة التى كان قد أحبها فى نوفوجرود ولم يستطع الاقتران بها لأنها تزوجت من غيره . قابلها فى تفليس بعد أن انفصلت عن زوجها ولم يعد من سبب لعدم عودتها معه . واستأجر منزلا صغيرا بينما اشتغل جوركى كاتبا عند أحد المحامين الأحرار من أهالى نوفوجرود تحت اسم جديد مستعار . وظل ينسخ مئات الدعاوى وآلاف المذكرات ويشهد الجلسات حتى إذا حل الليل وفرغ إلى نفسه فى حجرته الصغيرة داخل المنزل انكب يقرأ بلزاك والفلاسفة

ويحلم بالترحال إلى آفاق بعيدة ، الهند وسيلان وما وراء المحيط. وكان يكتب القصص ويتردد فى أن يرسلها للنشر لأن الأدب فى نظره مهمة رفيعة ورسالة سامية يجب ألا يشوبها النقص . وكانت جهوده كلها تبدو فى نظره عملة سقيمة فقيرة لا تحقق مايطمح فى انتاجه من روائع . ولكن صديقا له كان يقرأ دائما ما يكتبه أخذ منه قصة وأرسلها إلى إحدى مجلات موسكو ونشرت القصة ولاقت استحسانا عاما . ولم تمر أيام حتى كان جوركى قد تلقى شيكا على البنك بثلاثين روبلا ثمنا لقصته، وكانت هذه الثروة الضخمة أكبر قدر من المال وقع بين يديه بعد هذا العناء المتصل والكد الذى لم ينقطع بعد .

وأدهشت قصصه كتابا كبارا من طراز كورولينكو، الذى كان دوما يلح فى مقابلة هذا الكاتب الذى يوقع قصصه بإمضاء مكسيم جوركى . وفى المنزل الخشبى الواقع فى إحدى الضواحى البعيدة تذكر كوريلنكو الشاب المجهول الذى قابله من بضع سنوات وقدم اليه قصيدة من الشعر لم تعجبه . ووجد جوركى فى كورولينكو أستاذا ومعلما واعيا نصحه أساسا أن لايعنى برنين الألفاظ وأن لايكثر من استعمال الكلمات وأن يتعمق فى رسم الأشخاص وأخيراً أن يغادر المدينة إلى آفاق أوسع .

كان كورولينكو قد سمع عن ظروف حياته التعسة التى يعانيها وقد فكر جوركى ذاته فى ضرورة تغيير حياته، وكان أسلم ما وصل اليه من حلول هو أن يبدأ بالانفصال عن زوجته أولجا . وكانت رغم محبته لها عبئاً ثقيلا عليه ، لأنها كانت

جاهله فارغة، وقد عاش كلاهما تحت سقف واحد، ولكن فى عالمين مختلفين تمام الاختلاف . وانفصل عنها وترك المدينـــة فدعاه كورولينكو إلى الانضمام لهيئة تحرير مجلة سمارا وهناك احترف جوركى الكتابة فكانت تظهر له قصة جديدة كل أسبوع . وإلى جانب ذلك كان يعالج الكثير من المشاكل المحلية الخاصة بإصلاح حال المدينة. وعاش جوركى فى شبه عزلة داخل كوخ صغير يطل على شطئان الفولجا يشتغل بعد أن عثر أخير أعلى ضالته وتمكن من أن يزاول العمل الذى خلق له حقيقة . وبمرور الوقت، أخذت الأخطاء الهجائية تختفى من كتاباته وصار أسلوبه أكثر رصانة ووضوحا. ولم ينقض العام حتى كان جوركى قد كون لنفسه إسما فى سمارا . فتهافتت عليه جرائد ومجلات مدن الفولجا العديدة حتى طلبت إليه إحدى جرائد نوفوجرورد أن يلتحق بتحريرها فعاد إلى مسقط رأسه من جديد .

وكانت المدينه تستعد لافتتاح معرض صناعى سيشرف القيصر قادما من موسكو ، وافتتح المعرض وبدأت الجرائد والمجلات تكتب عن المعروضات وتمجد فى قوة وسطوة الامبراطورية الروسية. وشارك جوركى كافة المحررين فكتب هو الآخر عن المعرض، ولكنه لم يكتب عن عظمة الأمبراطورية وفخامة الصناعة المعروضة ، وإنما تكلم عن حياة الصناع الذين أنتجوها . كتب عن هؤلاء الذين يستخرجون الزيت والذين يصهرون الحديد والذين يصنعون الصابون ، وكان يعرف الكثير عن حياتهم

من تجاربه. فرسم فى مقالاته صورا صادقة عنهم « خدمة للقراء والحقيقة » ثم أخرج قصة لخدمة القراء والحقيقة أيضاً عنوانها . « الآدميون الذين كانوا بشرا » دلل فيها على أن فخامة المعرض وعظمة مبانيه وروعة معروضاته يجب ألا تحمد عليها السلطات لأن صاحب الفضل فى هذه العظمة كلها « الآدميين الذين كانوا بشرا » لأنهم فقدوا بشريتهم من أجل هذه الفخامة وذلك البذخ.

وفى تلك المرحلة أصيب جوركى بالمرض . تجمع عليه ما لقيه من جوع وإنهاك وفقر، وكل ما أصابه من رزايا فى صباه، مضافا إليها الحياة الكادحة التى كان يحياها كاتبا. وصارع جوركى من أجل التغلب على مرضه ، ولكن صحته ساءت مع ذلك حتى خشى عليه بعض أصدقائه فنصحوه بالهجرة إلى الجنوب كما أقر الأطباء. ورحل ليعيش فترة فى القرم، ثم انتقل إلى أوكرانيا ولما استطاع أن يقف على قدميه من جديد ارتد عائدا إلى نفوجرود ليعيش ويكتب. وكان أول ما فعله أن جمع قصصه فى كتاب . وبقى أن يجد الناشر الذى يقبل إخراج مجموعة قصص لأديب من أدباء صحف الأقاليم . وأخيرا استطاع بعد جهود أن ينشر مجموعتين من القصص فلم يمض وقت طويل حتى كان القراء الروس يتحدثون عن النجم الجديد الذى بزغ فى سمائهم الأدبية. كانت كتبه تباع كما يباع الكعك الساخن فى سرعة وبالآلاف .

وكشفت قصصه فى حرارة وصراحة قاصمة حقيقة الحياة الروسية المعاصرة لحياته.

لم يحاول جوركى أن يخفى شيئا أو يتستر على شىء. كان ينطق بالحقيقة بقلم قوى فيصرخ كل سطر من سطوره بإيمانه الذى لا يتزعزع فى الشعب وثقته التى لم تهن فى مستقبله . وجلب عليه كتابه الأول شهرة واسعة ، وبدأ الكاتب الجديد يأخذ مكانه الطبيعى بجوار معاصريه الكبيرين: ليو تولستوى ، وأنتون تشيكوف.

كان يرتقى مدارج الشهرة فى خطوات سريعة ، وكلما ازدادت شهرته ازداد قلق الحكومة القيصرية، وأصبحت السلطات المسؤولة تجد فيه عدوا لا يستهان به ، واستعرت الحرب السافرة من هذا التاريخ بين الكاتب الصغير الجديد ، وبين حكومة القيصر العتيدة وهى حرب بقيت متأججة عشرين عاما طويلة كاملة ، وبدأت معاركها عنيفة قاسية .

قبض البوليس ذات يوم على أحد العمال الثائرين فى تفليس. ولما فتش العامل، وجدت عنده صورة مكتوب على ظهرها الآتى: إهداء وتذكره إلى صديقى العزيز ما كسيموفتش : . ونجح البوليس فى الاهتداء إلى ما كسيموفتش فقبض على جوركى فى نوفجرود وأرسل إلى تفليس فأودع السجن . وانتهى التحقيق فى قضية العامل ولم يثبت وجود أى صلة بينهما ، فأطلق سراحه ، وأعيد إلى بلده ليوضع تحت المراقبة « فكانت أشباح لا تنفك تحوم حول المنزل ليلا ونهارا أيضا »

وفى عام ١٩٠١ سافر جوركى إلى العاصمة. فلما عاد قبض عليه البوليس. وقيل أن القبض قد تم بسبب تهريبه لبعض المطبوعات الممنوع تداولها . وأودع جوركى ثانية السجن، فانقطعت جميع مراسلاته وصداقاته ، وأثار القبض عليه هذه المرة ثائرة البلاد وهبت موجة من الاحتجاج فى جميع الأنحاء ، ووقف تولستوى يظاهر الكاتب المريض فاضطرت الحكومة إلى الخضوع لإرادة الرأى العام وأفرج عنه،على أن يلازم بيته فى حراسة البوليس .

وعاد جوركى إلى كتبه ومؤلفاته،فكان يقرأ مايكتب للجنود المكلفين بحراسته ومراقبته،وازداد نفوذه وعظم تقديرالشعب له وجاءت تقارير البوليس تفيد أنه : «قد أصبح له تأثير كبير على عمال المدينة بحيثلم تعدتستحب إقامته بها»وصدر الأمربنفيه حالا إلى مدينة بعيدة هى مـــدينة أرزاماس التى كانت بمثابة مقر للقساوسة والرهبان وأثار هذا الابعاد ثائرة الكتاب فى أوربا فكتب أحدهم يدافع عنه قائلا :

« إن كاتبا من أبرز كتاب أوروبا لايحمل سلاحا سوى حرية الفكر قد حكم عليه بالنفى وأبعدته الأوتوقراطية القيصرية بدون أدنى محاكمة» .

كانت صحته فى أنهيار مستمر وأشار الأطباء بضرورة نقله إلى الجنوب فانهالت شفاعات أصدقاءه ومحبيه العديدين وعلى رأسهم تولستوى تطالب الحكومة التصريح له بقضاء بضعة شهور

فى القرم، وقبلت السلطات أخيراً إرساله إلى القرم فازدحمت محطة السكة الحديد بالطلبة والعمال والأدباء والمفكرين من كل صوب وجاء جوركى فى حراسة الجنود فانطلقت الأكف بالتصفيق ودوت الحناجر بالهتاف عاليا :

ليحيا مكسيم جوركى وليسقط الاستبداد .

وفى عام ١٩٠٢ انتخبته أكاديمية العلوم عضو شرف بين أعضائها ، كانت إهانة كبرى أن ينضم رجل سجن أكثر من مرة إلى هيئة كبيرة محترمة كهذه الهيئة . وفى الحال صدر أمر السلطات إلى الأكاديمية باسقاط إسمه من بين المرشحين لشرف عضويتها — لكن كاتبين كبيرين من أبرز الأعضاء رفضا التسليم بما طلبته السلطات وقدما استقالتهما من الأكاديمية والتنازل عن عضوية الشرف الممنوحة لهما احتجاجا على ذلك . وهكذا وقف كورولينكو وتشيكوف إلى جانب جوركى .

وأمضى شهورا فى القرم، ثم عاد ليقيم فى منفاه المختار، وأرسلت السلطات المسؤولة مذكرة إلى رئيس البوليس فى أرازماس جاء فيها . « سيحل بمدينة أرازماس قريبا الكاتب مكسيم جوركى فليكن معلوما أنه موضوع تحت الرقابة المشددة ، وعليكم بمجرد وصوله مراعاة الدقة التامة ، وأخذ كافة الاحتياطات اللازمة الضرورية لمنع أى اضطراب يحدثه قدومه بين الأهالى ، وبالتالى يلزم ان لا يسمح لأحد باستقباله وأن تحاط عودته بالسرية التامة » . ووضع المنزل الذى أقام فيه الكاتب تحت المراقبة المشددة، وهذا ما كتبه جوركى لتشيكوف عن ذلك « كل شيء هادىء ومريح

هنا . والهواء نقي وعليل، لأن المكان محاط بالحدائق حيث تزقزق الطيور على أغصان الشجر بينما يختبىء عملاء البوليس بين الحشائش، تغنى الطيور فى جميع الحدائق ماخلا حديقتى ، التى يغنى فيها عملاء البوليس ، فانهم يقبعون وراء نوافذى فى الظلام الدامس محاولين أن لا تفوتهم مراقبتى وأنا أبذر التمرد وأثير العصيان فى جنبات روسيا على حسب مايتوهمون . ولكنهم تعساء مع ذلك لأنهم فشلوا فى إدراك حقيقة وقيمة وسائلى لبذر التمرد وإثارة العصيان المزعوم. ومن أجل ذلك ينصب جام غضبهم على اهل المنطقة. إنهم أغبياء قطعا ، لا يقلون غباء عن سادتهم بل ربما فاقوا سادتهم غباء » .

وفى هذه المدينة انصرف جوركى إلى الكتابة فكان لاينام الليل .. كتب إلى تشيكوف أيضا خطابا من هذه المدينة يخبره أنه عاكف على كتابة مسرحية .. ومحال أن تعجبك ومن الإجرام أن يحول بينى وبين إتمامها عائق من العوائق الكثيرة التى أصبحت تواجهنى » ذلك أن جواسيس البوليس الأذكياء أخطروا رؤساءهم أنه يرسل بالليل إشارات ضوئية من خلف زجاج نوافذه . . وقام البوليس بتحرياته المعهودة فلم يصل إلى أى نتيجة فلقد تعود جوركى أن لا يكتب إلا فى سكون الليل من طول إقامته فى هذا المكان .

كان جوركى قد زار مسرح الفن فى إحدى رحلاته إلى موسكو وهناك شهد مسرحية لتشيكوف هى مسرحية Uncle Vanya فلما عاد كتب عنها أروع ما خط قلمه فى خطاب إلى تشيكوف

يقول فيه : « لا يستطيع المرء أن يعبر تعبيرا صحيحا مباشرا عما تثيره هذه المسرحية في نفسه من أحاسيس، ولكني وأنا اشاهد أبطالها شعرت وكأن مقصا قاطعا حادا قد قطعني إلى نصفين، وأن أسنانه تروح وتجيء فتقطع من قلبي نتفا نتفا وقلبي يئن بينهما ويتوجع ثم يصرخ متمزقا » . لقد كانت تجربة شيقة بالنسبة لي . نعم إن مسرحيتك شيء جديد كل الجدة على الفن الدرامي ، في الفصل الأخير حين تكلم الطبيب بعد طول صمته، فشرح كيف تلفح الحرارة إفريقيا، اقشعر بدني إعجابا بمواهبك واشفاقا على الشعب ورعبا من حياتنا القاتمة التي يطمرها الفقر ويضنيها الحرمان» .

ولما سمح له بالإقامة شهور في القرم كانت فرقة مسرح الفنون قد حطت رحالها في يالتا، وهناك، التقى جوركي بتشيكوف فألح عليه أن يكتب للمسرح . وجاء إلى أرازاماس يحاول طرق هذا الميدان الجديد . كان يكتب طوال الليل بينما البوليس يتهمه بإرسال إشارات ضوئية من النافذة — ولقي جوركي صعوبة كبيرة في هذا الميدان. كان القالب الدرامي غريبا عليه. فكتب وأعاد الكتابة وفي ذهنه تلك النصيحة التي ألقاها على مسامعه ذات يوم أحد المعجبين من الأدباء « أكتب أولا مسرحية من خمسة فصول ، ثم بعد عام أرجع فأكتبها في ثلاثة فصول ، واتركها عام آخر ثم أعد كتابتها في فصل واحد ، فإذا انصرم عام جديد ثالث إلق بها في النار » .

لكن جوركى ضن على المسرحية التى كتبها بأن تكون طعمة للنيران واحتفظ بها . ومثلت «المنافقون» على مسرح الفن بعد أن أدخلت عليها الرقابة تعديلات فرعيـة . ثم تلتها الأعماق السفلى The Lower depth . وكان الجمهور فى نهاية كل منها يطلب رؤية المؤلف فيخرج إليهم جوركى من بين الستائر حائر النظرات موزع العاطفة ، وقد نسى المرة بعد المرة أن يرفع سيجارته من بين شفتيه . واعتبر جوركى هذه المظاهرات المشرفه نصراً على الاستبداد أكثر منها نجاحا لفنه .

وأخيرا هبت العاصفة . وجاء عام ١٩٠٥ فسالت الدماء أنهارا أمام قصر الشتاء الامبراطورى وفى جميع أصقاع مملكة آل رومانوف الشاسعة البطاح. تقدم ألف رجل وامرأة وساروا فى موكب ضخم لمقابلة القيصر وتقديم عرائض التظلم : « نحن شعب سان بترسبورج تصحبنا زوجاتنا وأطفالنا ومعنا آباؤنا العجزة جئنا إلى ساحتك نطلب الرحمة والحماية . حاكمنا ومولانا .. لقد فرغ صبرنا وحلت اللحظة الرهيبة التى أصبحنا نفضل فيها الموت على متابعة هذه الآلام البالغة » .

كانت الحكومة تعلم بأمر هذا الحشد ، فصدرت الأوامر إلى فرق الجيش بالاستعداد ، وفى هـذا اليوم كان جوركى يسير فى شوارع العاصمة جنبا إلى جنب مع وفود المتظلمين . « كان يوما رهيبا أشد رهبة من حمم الحديد الأحمر الملتهب تسيل فى بطء على جسد بشرى » . وسمع جوركى الجماهير تصرخ فى الجنود :

« لا تظنوا أنكم تقتلون الشعب لأن الشعب لا يمكن قتله ، اعلموا جيدا أنكم إنما تقتلون القيصر » .

وجاء جوركى إلى بيته شبه محموم ، وجلس يكتب نداء وجهه إلى جميع مواطنيه الروس ، وإلى الرأى العام فى بلدان أوروبا المتحضرة . وفى هذا النداء صرخ بأن ما وقع فى شوارع العاصمة وما جرى من إسالة الدماء إنما يعتبر جريمة قتل بالجملة « جريمة مدبرة يجب أن تعاقب عليها الأتوقراطية المتسلطة أشد العقاب » ووقع أصل النداء فى يد البوليس الذى لم يصعب عليه معرفة خط كاتبه . وقبض على جوركى فى الحال وسجن فى حصن « بتروبول » وهو المكان المعد لسجن كل من يتهم بالخيانة العظمى . وبعد رجاوات مستمرة من جانب الكثيرين من ذوى النفوذ سمح له بمزاولة مهنته الأدبية فبدأ فى السجن بكتابة مسرحيته « أبناء الشمس » تظلل سطورها دماء المجزرة .

وأخيرا بلغ سمع أوربا أن جوركى أودع ثانية السجن ، فهب كتابها ومفكروها للدفاع عنه ووقف أناتول فرانس فى باريس وسط جمع من الصحفيين يعلن : « أن جوركى لا ينتمى لروسيا وحدها ، إنه ينتمى للعالم كله » . وانهالت الاحتجاجات على سان بترسبرج من النمسا وإيطاليا وبلجيكا والبرتغال وألمانيا . كان الكل يطالب بإطلاق سراح جوركى ، عظماء فى كل حقل من حقول النشاط الإنسانى ، علماء فى نبوغ بيير كورى ومثالين من طراز أوجست رودن وزعماء اشتراكيين فى قوة جان جوريز

وغيرهم وغيرهم . وأجبرت الحكومة القيصرية على منحه الحرية من جديد .

والواقع أنه لو بقى جوركى فى السجن شهورا أخرى لمات لأنه بعد شهر واحد من القبض عليه بدأ يبصق دما .

وتلاحقت الثورات خلال العام ، وفى ختام سنة ١٩٠٥ نصحه أصدقاؤه جميعا بالخروج من البلاد قبل القبض عليه ثانية. ورحل جوركى فورا إلى ألمانيا ثم مر بفرنسا وانتقل عبر المحيط ليعيش فى أمريكا مواصلا حملته على الحكومة القيصرية ، فكان ينشر الصفحات الطوال ويدعو إلى الاجتماعات الكثيرة « كنت لا أنى أتكلم وأكتب فى كل مناسبة » .

وعاش بعض الوقت فى أمريكا عاكفا على كتابة أعظم قصصه « الأم » وفيها وصف نضال الشعب الروسى فى تلك الحقبة أبلغ وصف . وأرسل بعض فصولها لتنشر فى بلاده . ولكن الرقابة لم تكن تبيح معظم ما كتب، بل أعلنت الحكومة باسم النائب العام أن القضاء يطلب « القبض على الكس ما كسيموفتش بيتشكوف الحرفى وعضو نقابة عمال الاعلانات فى نوفجزود للمثول أمام محكمة سان بترسبرج المحلية » لكن جوركى لحسن الحظ كان بعيدا عن متناول أيدى البوليس يفصله عن السلطة قارة بأسرها ومحيط شاسع واسع . وأصبح من المستحيل على جوركى أن يعود إلى وطنه . ولما كان فى حاجة لأن يعيش فى مكان دافىء فقد غادر أميركا ليقيم فى جزيرة كابرى بإيطاليا فى أواخر عام ١٩٠٧ .

وحينما أعلنت الحكومة القيصرية عام ١٩١٣ قرار العفو الشامل، غادر جوركى الجزيرة وسافر توا إلى سان بترسبرج . ثم وقعت الحرب العظمى بعد عام . ووقف جوركى ومعه بقية الأحرار من الكتاب والمفكرين فى وجه الحرب . ولكن الحكومة القيصرية لم تستطع فى هذه المرحلة أن تمد إليه يدها . كانت الأحداث تتطور بسرعة فى جانب الشعب حتى خلع القيصر ثم قتل وقامت الثورة الروسية عام ١٩١٧ .

وتلت الثورة أحداثها: فلما تدهورت صحة جوركى من جديد ألح عليه لينين أن يعود إلى ايطاليا حرصا على حياته ، فرجع إلى ايطاليا وأقام فى «سوريتنو» وظل مقيما بها بضع سنوات . كان هذا هو المكان الوحيد الذى يمكنه فيه أن ينجو من موت محقق بذات الرئة ، مرضه العضال الذى قضى عليه فى نهاية العمر . وجاء عام ١٩٢٨ فعاد إلى بلاده ليشهد الاحتفال المجيد ببلوغه الستين . ثم احتفل عام ١٩٣٢ بانقضاء أربعين سنة على نشاطه الأدبى وكان الاحتفال قوميا شمل أنحاء وطنه .

وأقام فى أرض السوفييت يشرف على الحياة الأدبية، يؤسس المجلات العديدة ويوجه الكتاب الصغار وينشىء الدور الثقافية . كان مجهوداً شاقا على رجل تخطى الستين ومع ذلك ظل يؤكد لأصدقائه فى سنيه الأخيرة أنه «يجب أن أكتب أربعة كتب أخرى حتما .. لا بد — أربعة كتب .. بمعدل كتاب كل عامين وسأتمها فى ثمانية أعوام»

وكان جوركى رغم كبر سنه قادرا على أن يفعل ذلك وأكثر

من ذلك بكثير . لكنه مرض فجأة فى يونية سنة ١٩٣٦ وأخذ المرض من بدايته طابع الخطورة . فكان يتنفس ببطء وصعوبة وأضلاعه تتمزق فلا ينطق بحرف ثم فقد وعيه فى ١٨ يونيه .

وانتشر خبر وفاته فهبت الملايين لتصاحب جسمانه إلى المقبرة ووقف مولوتوف فى الميدان الأحمر فقال :

« يفارقنا الآن ألكس ماكسيموفتش جوركى ، فنحس نحن أصدقاؤه وقراؤه العديدون والمعجبون بكتاباته أن صفحة رائعة قد طويت من حياتنا إلى الأبد . إن موت جوركى خسارة من كبر الخسائر التى منيت بها بلادنا والإنسانية على السواء . »

كان أعظم مافى جوركى الحياة التى عاشها وأعظم مافى حياته الأحياء الذين كتب عنهم وأعظم مافى كتاباته البساطة المعجزة، جوهر الفن الحقيقى . وهذه البساطة تعلمها جوركى من أنداده الكتاب الكبار وتعلمها من الشعب أعظم خالق للغات .

وهكذا ارتقى جوركى أسمى ذرى الفن «الذروة التى يصعب عندها أن تفرق أو تفصل بين الجمال والبساطة حيث يكون الجمال دواما هو البساطة وتكون البساطة هى الحقيقة . »

لقد رسم جوركى صورا قلبية عديدة للوجوه والأنهار والبيوت والسماء والحقول والغابات..رسمها فى كلمات بلغت من دقتها أنها تنطبع فى عقل قارئيه وكأنها قدت من حجر نفيس.. وهذا منظر طبيعى رسمه جوركى فى أخريات حياته :

« كنا نجلس فى الحديقة فى ظل أشجار الكرز التى تفيض

بزينتها من حبات الفاكهة القرمزية، وكنا فى المساء ، والحر اللذاق يحتجز العاصفة ، بينما رقع السحاب الرمادى المدخن تنقط السماء التى كان يحكى لونها لون اللبن الرائب، والظلال تطيف بالحديقة. ومن العجيب أن ترى الأوراق مدلاة لا حراك بها . »

نال جوركى الشهرة باكرا .. لكن طريقه إلى فنه كان شاقا طويلا استغرق العمر كله . فعاش مثابرا لا يكل يدرس ويدرس هذا الفن العسير .. فن الكتابة فى بساطة. وبهذه البساطة المعجزة رسم أروع وأدق وأعنف صور رسمت حتى اليوم للمظالم القاسيه والآلام الانسانية المريرة التى تنوء بها حياة الملايين ، فكان أصدق من روى فى إيمانه الجارف بالحياة، وهو ابن الحياة، قصة جوع البشر وأدخلها إلى الأدب الرفيع

استمع جوركى ذات مرة وهو فى قازان إلى محاضرة عن شكسبير قال فيها المحاضر بصوت موسيقى عذب أن « غاية الأدب الوحيدة أن يبعث السكينة فى النفس » . فسجل جوركى الكلمة فى مذكراته وكتب تحتها . . « هذا خداع وكذب فاضح » وكان للأدب فى نظر جوركى غاية أسمى وهو القائل .

« ليست غاية الأدب أن يهدىء ، وإنما غايته أن يثير النفس البشرية حتى لا نركن إلى الرضى ، لأن الرضى معناه انقطاع الحياة والتطلع إلى الموت ، والأدب الصحيح هو الذى يعرك الحياة ليعيد خلقها من جديد . »

اراجون

فى أحضان الشعب

منذ أعوام قليلة ، كان لويس أراجون ، من الأسماء المجهولة لدى الكثيرين . ولم يكن معروفا إلا فى بعض الحلقات الأدبية المتعرجه وسط انحناءات الفكر الفرنسى المهتز — أما الآن ، فلا يكاد مار ، لايلمح إسم لويس أراجون فى كل خطوة يخطوها ، مهما جد فى السير وسط الأخاديد والدروب وبين الفجوات الموصله إلى دنيا الفن الفرنسى . فهو اليوم أشهر وأعظم شاعر فرنسى حى ، وهو الشاعر الفرنسى الوحيد تقريبا ، الذى تترجم كل قصائده إلى معظم اللغات والشاعر الذى ينفرد بأغلب مقالات المديح والثناء المستطاب ، ومعظم فصول القدح والطعن البذىء ، التى تكتب عن الشعر الفرنسى الحاضر ، فى المجلات والكتيبات الأدبية الكثيرة التى تتراكم يوما بعد يوم ، فوق أرصفة السين وعند باعة المبـــادلة . وأبرز ما يستحق الإلتفات فى أراجون هو نظرته إلى العالم ، وهذا الاتجاه الذى يلون كل سطر يكتبه من الشعر . ولا يمكن توضيح ذلك إلا بتحليل تطوره ونمائه ، إذ لا يكفى لكى نفهم

أراجون، أن ننظر إليه وهو فى حالته الراهنة .. يجب أن نعلم من أين نبع فى بدايته كشاعر ؟ وما هو مصدر شاعريته ؟ وإلى أى مصير يتجه ؟ أى مستقبل شعره .. وذلك لا يتأتى إلا بعد دراسة الطرق التى اختطها ، والسبل التى عركها ، حتى بلغ هذه النهاية التى انتهى إليها .. وبمعنى أعم دراسة المشاكل والمتناقضات التى أحاطت بظهوره فى عالم الأدب الفرنسى .

خضع الأدب الفرنسى فى الفترة ما بين الحربين ، وهى فترة نشوء أراجون لما يمكن تعريفه عامة «بعقيدة اللاوعى» . ومن المحال أن ترد هذه الأشعاعات فى مجال الأدب إلى قوام فلسفى بذاته. وعلى هذا ينتفى القول بأن بيرجسون وفلسفة بيرجسون الروحية هى التى لونت الأدب الفرنسى بهذا اللون . والذى يمكن أن يقال حقيقة أن هذه الفلسفة، لازمها كما لازم أدب فرنسا فى تلك الفترة عامل واحد هو الانصراف عن العالم الخارجى والانطواء فى عالم الذكريات والرغبات الانسانية المكتومة فى مظهرها المفتقر إلى الوعى والعقلية .

وهذا الاتجاه لم يظهر جليا واضحا، كرد فعل لواقعية زولا وبلزاك، واستمرار الرومانتيكية دوديه واناتول فرانس فى القرن الماضى ، إلا بعد عام ١٩١٨؛ حين بدأ الأدب يندغم مع فلسفات ما بعد الطبيعة والانحناءات اللاواعية فى تصوير الحياة والناس . وفى ذلك الحين ظهر « مارسيل بروست » فبذ أقرانه فى هذا الاتجاه . أخرج بروست قصصا صور فيها « الفئات المهذبة » من المجتمع الفرنسى ، وهى تنهار تدريجيا كطبقة حاكمة بات ينخر فى

عظامها سوس السرقة والرشوة والمحسوبية ، وتسد الوصولية أمامها كل طريق فى البقاء . وقد بقى بروست كما كان بلزاك قبله، خارجا عن نطاق العالم الأرستقراطى الذى اختار تصوير أهله . ولكنه على عكس بلزاك اندفع بطابع عصره ، فلما أخرج معلقته القصصية « فى البحث عن الأزمنة الضائعة » وملأها بتحليلات كان يظاهرها اللاوعى ، وتسند تعلاتها ميتافيزيقية مطلقة بلغت حد الغموض المطبق . وكذلك غلب على شعر العصر ، منطق اللاوعى المقصود الذى انتهى به إلى السيريالية . وخرج الشعر مرآة للحياة الحديثة بكل متناقضاتها، وبكل ما تعج به من حيرة واضطراب وفوضى وقلق ، نتيجة رد الفعل الذى كانت تؤثر به مظاهر الحياة الآلية على طبيعة الشعر والشعراء ، أو هكذا كانت تعلة الشعراء أنفسهم فى دفاعهم عما لابس شعرهم من وهم وغموض وتضارب . إذ الحقيقة أن الشعر كفن ، لا يمكن أن ينطق إلا عن وعى مبلور ، ويبين عن فهم راكز بحقائق الكون ، مهما كان تناقض صوره ومهما تشابكت فيه الأخيلة .

وقد أنساق أراجون فى مبدأ أمره مع كافة الشعراء الشبان المعاصرين له إلى هذا المنحى، وتأثر بالسيريالية واحتضنها وتشيع لها زمنا طويلا . فأخرج مع السيرياليين فى تلك الفترة أشعارا غامضة مبهمة ، لا تبين عن معنى ولا تعبر عن مدلول ، وإن لم تخل من كثير من التجارب الفنية التى أفادته فيما بعد ، يوم برىء من سيرياليته . وفى ذلك ، كان أراجون ابن جيله .

ولم تكن عدوى اللاوعى قاصرة على الشعراء الجدد وحدهم بل إنها تفشت حتى أدركت شيوخ الشعر الفرنسى . وكان ذلك

طابع العصر ذاته ، الذى أشرفوا فى كهولتهم على نهايته . وقد دفع ذلك السيريالية ودعاتها إلى الجهر بأنها لم تكن وباء عارضا أصيب به العصر، نتيجة للانهيار الذى كانت ولا تزال تعانيه الذروة التى تكلل هام الحضارة المولية ، وهى تتساقط أنقاضا رومانتية ورمزية وروحية وسيريالية ثم وجودية فى النهاية . بل أنها كما زعموا جاءت أتجاها طبيعيا انتهى إليه الشعر فى كبار فحوله .

وهكذا أكتشف السيرياليون ، أن بول فاليرى كان واحدا منهم بل عمدة عمدائهم . مع أن بول فاليرى لم يكن سيرياليا بالمرة ولو كان !! لما عاش فاليرى إلى اليوم ولقضت عليه كما قضت عليهم.

ونظرة عاجلة إلى شعر فاليرى كافية لأن تبرئه من هذه الوصمة. فأشعار فاليرى فى الفترة من عام ١٨٩٥ حتى بداية الحرب العظمى لا يمكن أن توصف بأكثر من أنها أشعارا رمزية، بل رومانتية بسيطة ، أبسط من أن توقعه فى ضلالات السيرياليين . فالنقطة الأولى التى يبدأ منها فاليرى هى فلسفة «الإنسان المثالى» تلك التى يلخصها فى زعمه إنسان رفيع من طراز ليونارد دافنشي .. إنسان صاحب عقلية واسعة زاخرة تحتضن الفن والعلم معا .

ولا تعدو جميع أعمال فاليرى وكتاباته محاولات تفسيره لهذه الوحدة أو كما يقول هو ذاته : الكشف عن العلاقات بين الأشياء التى تفشل فى الربط بينها بقانون الدوام والاستمرار : ومثل هذا الشعر بالضرورة لابد وأن يستند إلى العقل وما يهضمه من ثقافات ومعارف علمية وفنية،وفى الوقت ذاته، لا بد وأن يداخله العنصر الفنى فى الآلة التى تحفظ تتابع سير الوحى فوق قضبانه : وهى كما يعرفها لا يمكن أن تكون إلا جهاز اللغة ذات الجمال اللائق . . الجمال الفلسفى . . .

وليس معنى هذا طبعا الاستغناء عن العاطفة وطرحها جانبا أو الكف عن إخراج الغنائيات الشعرية. إنما معناه تعريف الشعر تعريفا جديدا يتفق مع روح العصر وطابعه الذى يجب أن تحدد على ضوئه طبيعة الشعر وغايته ويهدف فاليرى من وراء ذلك إلى خلق عبقرية من نوع معين. من نوع مثله الأعلى «ليونارد دافنشى» فى العصور القديمة أو من نوع جيته فى عصورنا المتقدمة. شاعر يجمع فى فنه بين الأصالة الفنية والإدراك العلمى ، شاعر لا يعيش على الخيال بأجنحة من القش وإنما يمشى بخياله على الأرض : فوق القضبان الحديدية أيضا .. شاعر يحمل الشعلة الخالقة بعقلية علمية . وسواء أكان فاليرى نجح أو فشل فى تطبيق هذه القواعد على نفسه وشعره ، فلا جدال أنه يعتبر من فحول شعراء فرنسا المحدثين .

وقد قصدنا من وراء ذلك كله ، أن ندلل على أن فاليرى لم يكن سيرياليا . لقد كان فاليرى رومنتيا صرفا فى شعره . بقدر ما كان رومنتيا فى نظرته إلى الحياة وأدق حكما على شعره ، إنه جمع بين الجمال الحسى فى النظم والتسلسل العقلى السائغ للفكرة . ولكنه لا يمكن أن يوضع فى قائمة معينة من قوائم مدارس الشعر المتضاربة ، لأنه لا يتبع فى مجمل أشعاره مدرسة بذاتها . إنه من المتناقضات التى تشع فى السماء الأدبية وتترك وراءها ظلالا من الضوء ثم تختفى فى الفضاء البعيد .. كالنجم المذنب .

لم يكن فاليرى إذن سيرياليا ، لأن فاليرى كان شاعرا كبيرا

وكذلك كان من المحتم لكى يصبح أراجون هذا الشاعر الكبير أن يتخلص من سيرياليته، وكان من المحال فعلا أن تسيطر نزعة تخريبة ضيقة كالنزعة السريالية على عقلية إيجابية كعقلية أراجون. وما كان من المستطاع أن يواصل أراجون سيرياليته عن وعى بالخاتمة الحتمية كما فسرها جليا جورج هوجفريت، وهو من المتعصبين للسيريالية حين قال: لقد أنفلت الشعر خارج الأدب ويمكننا أيضا أن نجزم بأنه أصبح ينفلت من فوق أسطح الورق إلى قلب الحياة. لم يعد الشعر مجرد حالة عقلية، بل أصبح الشعر هو الحياة نفسها .. هو العقل ذاته، عين العقل .. » فكان أراجون من الفئة التى آمنت بعد فترة اضطراب وتردى بأن الشعر هو الحياة.

أما هذه المرحلة السرياليــــة من شعره، وهى تلك التى خصها بإنتاج « الغور فى أعماق العقل » فقد أفادته فى اكتساب أساليب طليقة، كما أمدته بالأخيلة الفنية التى نراها اليوم واضحة فى شعره ومن الصعب قراءة الأشعار التى كتبها أراجون بين عامى ١٩١٩ وعام ١٩٢٩ لأنها غامضة معقدة، ولأنها أشعار لا معنى لها إطلاقا، ولكنها مع ذلك مليئة بالابتكار والتجديد الفنى والإبداع فى الأسلوب والجمال الغنائى. فهناك مثلا. هذه القطعة التى يتلاعب فيها بالألفاظ

فواكه مذاقها كالرمل
وطيــــور لا إسم لها

وخيول مزركشة كالأعـــلام
والحب عار ولـكنه لا يبهر الطرف
إنها كلها تخضع للتجربة الفريدة
تخضع للروح المتغيرة المتجددة
إنها تخبو كما يخبو مصباح الزمن البغيض
وتتلون كما تتلون الشمبانيا بصدأ كصدأ المدافع

وفى تلك الفترة السيريالية من إنتاجه ، فعل أراجون فى الشعر ما كان يفعله بيكاسو فى الرسم ، فابتدع أساليب عديدة ، وتحكم فى التشكيلات الفنية الملتوية لفن الشعر حتى أصبحت الصياغة لينة بين يديه كقطعة العجين .

وطرح أراجون السيريالية جانبا عام ١٩٣٠ . وبدأ يخط طريقه الجديد ، بعد أن كادت التجربة السيريالية تشله تماماً . فاتجه بكليته نحو الصراع إلى جانب جماهير الشعب « والقوة النابضة الحية من الجموع » .. ولما أفاق أراجون نهائياً للواقع ، قاده إخلاصه وصلابته الطبيعية وإيمانه الراسخ بصدق وحقيقة اختياره ، إلى أن ينحاز لجانب الشعب انحيازاً عملياً ، فقطع كل صلة بالسيريالية « والشعر الذى لا مدلول إيحائى له » . كما وصفه واستدار ليظعن رفاقه الأقدمين ناعتاً إياهم بأنهم « أعداء للتقدم خدم للعبودية ، أصفياء للاستبداد »

وخرج أراجون على نفسه وبيئته الماضية خروجاً صارخا

باتا، فتنكر لكل القيم التى كانت تخلقها فيه السيريالية، وأدان الايمان باللاوعى ، بأنه إيمان مخرب ، وندد بالذاتيه ناعتا إياها بأنها عين الفوضى ، صارخا أن « لاخلاص إلا مع الجموع ، وألا أمل إلا فى الجموع ، ولا مستقبل إلا للجموع . . هنا الراية الكبرى التى يجب أن تختفى تحتها جميع الظلال » .

وفى تلك المرحلة الانتقالية ، اتشح شعره بالوضوح والبساطة ونضبت أسطر قصائده بالحياة ، وفاضت معانيه عذوبة، وسالت الصور الخلابة دفاقة مشرقة .. وخرج أراجون بشعره إلى النور « وأزيح عن عقلى قناع الأوهام » كما اعترف ... على أن هـــذا التغير الملموس لم يكن مجرد انتقال من مرحلة إلى مرحلة ، وإنما كان تحولا تاما لارابطة فيه بين أراجون حينذاك وأراجون فى عهده السيريالى السالف .

وتمكنت العقيدة ، عقيدة الكفاح مع الجموع من أراجون ، فهجر الشعر ستة أعوام إلى الصراع السياسى مع العمال وفى صفوف الجبهة الشعبية . . وتطلب الصراع أن يمد قلبه إلى صدر ميدان جديد .. فراح يكتب القصة، محاولا تصوير المجتمع الفرنسى الذى يعيش فى أعماقه على نمط ماصوره زولا وبلزاك ، فأخرج صوراً صادقة فى مجموعات أوبع متلاحقة كانت تفيض بالتفاصيل، وتتسع حدقتها إلى آفاق بعيدة فى مجالات الحياة الفرنسية المريضة، لكنها كانت قصصا مسهبة طويلة مملة ، رغم العناية التى بذلها أراجون فى حبك بنائها الفنى ، ورغم المواقف الدرامية والقطع الفنية الرائعة التى تبرز فى الكثير من صفحاتها « غير أن القارىء مع ذلك

يشعر أن مؤلفها قد أوقع نفسه وزج بها فى بيئات كالبيئات الأرستقراطية التى كتب عنها بدون أن يكون قادراً على فهمها للكشف عن حقيقتها .

لكن مطاوعة اللغة لأراجون وقوته التعبيرية الحاذقة أطلقت قلبه لينبض على الصفحات نبضات كان لا يمكن أن يحدها، إلا فن تعميم وتركيز كفن الشعر .. فن أراجون الحقيقى .

ورغم هذا، فإن مجموعة القصص القصيرة التى نشرها أراجون أخيراً ، وكلها صور متلاحقة عن فرنسا أثناء الاحتلال وفى زمن حركة المقاومة والصراع ضد الفاشية ، أثبتت أن أراجون من الكتاب الناثرين الممتازين ، فهو فى الكثير منها يكاد يضارع موباسان . أما السر ، فهو أن المواضيع التى اختارها أراجون وكتب عنها هذه القصص كانت أقرب المواضيع إلى قلبه .

لهذا فقد صورها بقوة وصدق ، وكتبها بعد أن عركها أثناء اشتراكه ومساهمته الفعالة فى حركة المقاومة ضد احتلال النازيين لبلاده . وهذه القصص والصور أنجح كثيراً من القصص الطويلة السابقة . ولا شك أن هذا اللون من ألوان النثر الفنى ، «القصص القصيرة والصور الخاطفة» أقرب إلى الشعر من الروايات الضخمة إذ تتطلب التركيز والقدرة التعبيرية الاجمالية التى لا يستطيعها غير الشعراء .

على أن ترك الشعر والاتجاه إلى كتابة القصة، كان بالنسبة لأراجون مجرد مرحلة إعداد وتهيؤ كسب خلالها تجارب فنية جديدة ،

تمت أثنائها شخصيته وخبرته وأمدته بقوة موضوعية وافرة . وفى الحق أنها كانت تعده لأداء رسالة فى الشعر أعظم وأجل من رسالته السابقة . فجاء الشاب الذى نادى عام ١٩٢٠ قائلا « إنى احتقر الدهماء ولا أحبهم أبدا » ليقول فى عام ١٩٤٣ بإيمان راسخ وعقيدة ثابتة ، وبعد احتكاك طويل بالشعب وصراع متصل فى صفوف الدهماء « لن أهتف إلا بالشعب ، الشعب أغنيتى المفضلة .. أغنيتى التى يجب أن لا ينكرها على أحد .. لأنها أغنية الإنسان »

وهكذا انقلب يدين الحب الجنسى الذى قال عام ١٩٢٤ بأنه الحب الوحيد الصريح بأنه « حب مبتذل رخيص لا يضارع الحب العفيف السليم .. حب واهن موقوت لا يضارع الحب الأبدى الخالد .. حب الجوع وإسعاد الجوع » وبعد أن كان يخاطب إلزا (زوجته فيما بعد) قائلا « إنى لا أستطيع أن أرى العالم إلا من خلال عيونك .. أنت أسرتى التى لا أعترف إلا بها ... » صار يقول فى النهاية أنت وأنا وكل من معنا ، يجب أن نقيم فى أحضان الشعب وفى كنف أسرتنا الكبيرة . »

وأخيراً تبوأت القيم الصحيحة الراسخة ، مكان القيم الرخيصة الزائفة . وعاد أرجون ليكتب الشعر .

وفى الفترة ما بين عامى ١٩٤٠ — ١٩٤٤ وكانت سنوات خاصة بالتجارب العاطفية ، وبتجارب الحرب والزحف الألمانى والاحتلال العسكرى الفاشى ، أصبح الشعر أوضح وسيلة وألزم سلاح للتعبير عن النفس . وما كان من المستطاع تصوير مراوغة

خيانة فرنسا على يد نفر من أبنائها ، وتشتيت الشعب الفرنسى وانتهاك حرمته ، لأنانية قلة من أفراده . ما كان من المستطاع وصف ماينخلع له القلوب هلعا من معارك المقاومة والبطولة إلا بالشعر .. « الشعر المركز العاطفى الذاتى .. »

وأخرج أراجون «القلب المحطم» .. فعبر فى وصفه عن مشاعر كافة مواطنيه الفرنسيين وحطم إلى غير رجعة ، فى ميدان الصراع من أجل الوجود ، ذلك الحاجز الوهمى الذى كان يفصل الشاعر عن الشعب . وصار الشعب يتغنى بكل ما كان ينطق به أراجون . فترنم الرجال والنساء فى جميع أرجاء فرنسا خلال الاحتلال النازى وتجاوبت ترنيماتهم طويلا وكثيراً بأشعار أراجون، وهى أشعار لو كان لدى كل فرد منهم موهبة الشعر لما نطق بغيرها . وفى هذه الأشعار يستبين جليا التغيير الذى طرأ على أراجون ، فنجد فيها الصفة الغنائية المحببة، والقدرة الفنية التى امتاز بها شعره السابق مذابا فى حيوية وعنف الموضوع وصدق وصحة الغاية . . وهل أصدق من التغنى بوطنه فرنسا وحبه لها . . وهل أعظم من التسبيح بالحرية !! وهل أجل من تمجيد الشعب وبطولته !!؟ وهل أشرف من محاربة الاحتلال والبغى ومقاومة الظلم والعسف !!!! وفوق ذلك فقصائد (القلب المحطم) لا تخلو من طابع التأمل . إنها تتأجج بمشاعر الشعب الفرنسى وأمانيه وآماله فيما كان يلاقيه من عذاب واضطهاد على يد برابرة القرن العشرين .

كان ذلك فى عام ١٩٤٠ . ولكن اللحن يتغير بعد هذا بعامين فقط .. ويتحول وصف الألم والتعلق بالآمال والأحلام، يتحول هذا الرجاء السلبي إلى رغبة حارة ثائرة ، تستعر بروح النضال الصلب فى سبيل الخلاص. وأصبح أراجون على حدما وصفه كونارد عام ١٩٤٤ « رمز لهذه الروح الوثابة التى تعاود فرنسا وتلبسها فى كل محنة تقع فيها وعند كل خطر يحيق بها ، روح الدفاع عن الحرية المهدده وحماية الحق المسلوب . . . »

وما كان أراجون رغم الصعاب والمهالك التى كانت تحيط به وأقلها الإعدام رميا بالرصاص ، ما كان ليكف عن قول الشعر داعيا الشعب الفرنسى إلى النضال فى صلابة ضد احتلال الألمان لبلاده والصراع فى غير نكوص أو تراجع من أجل استقلال فرنسا وحريتها ومستقبلها ، مهيبا بأبنائها « لا تنخدعوا بما يحاول الخونة والمتآمرين فرضه عليكم . . إن أنصار الاحتلال ودعاة التعاون يساومون الأعداء على حريتكم يا مواطنى . . إنهم يتقاسمون معهم نهب أقواتكم وسلب حقوقكم وإهدار كرامتكم . . . » ثم يرفع عقيرته بالغناء مجلجلا عاليا يحتد على نقاده أنصار الفن الذاتى من دعاة الأبراج العاجية الذين هاجموا فيه « هذه الدعاية السياسية الصارخة » فيقول فى قصيدة ردا عليهم :

إننى بتنفسى أحرم بعض الناس من الحيـــــاة

وأقلق مضاجعهم وأنغص عليهم وجودهم بما لا أدريه من الآلام

ولكنى ألحظ كلما قلت شعرى هذا أننى أضرب بالسوط

فيحدث الطرقعة الفعالة التى يجب أن توقظ الأموات النيام

وعملا بنصيحة زوجته التى كان يكتب هذه القصائد وأمثالها فلا يهديها إلا لها ، بدأ يخرج من الإلتواء والغموض إلى الوضوح والبساطة ، حتى يصل صوتى إلى جميع الآذان ، وعبر عن ذلك شعرا :

قلت لى : « إقلع عن الأوركسترا الصاخبة
لأنه الآن يوجد كثير من الفقراء
لا يستطيعون شراء قواميس ومعاجم
يستنبطون منهــا معانى ألفــاظى
فهم يفضلون ويحبون الألفاظ العادية
التى يمكنهم ترديدها »
وأجيبك أننى سأفعـــل
سأترنم بما يترنم به كل فم

وراح يكتب بلغة سهلة بسيطة يفهمها أكبر عدد من الناس لتصل إلى آذان الشعب فى كل ركن بعيد عن متناول الشعر . وعبر عن ذلك بالشعر أيضا فقال ..

نعم . . يجب أن تكون الكلمات كالأسلحة
تصيب من العدو مقتلا فى الصميم
نعم . . يجب أن تكون الكلمات كالأوتار
ترنم عليها أمجــاد الأبطال

نعم .. يجب أن تكون الكلمات كالنصب
ترفع بازغة فوق قبور الشهداء

وفى هذه القصائد وأمثالها كان أراجون يوجه كل همه إلى حفز بقية الشعراء لاقتفاء خطاه والسير على نهجه .

ونراه يصرخ فى إخلاص وقوة مهيبا بهم أن يحفلوا بما يعانيه الشعب :

فى سبيل أشرف الغايات وأجلها
فى سبيل كرامة الإنسان وحريته
فى سبيل أبنائكم وأحفادكم
فى سبيل فرنسا التى هى أنتم وهم

ولا ينسى بعد هذا أن يخاطب زوجته :

سأجد ألفاظا على أجنحة الريح
سأجد كلمات تصل إلى الآذان فى الحلم
تطغى كما يطغى نور الشمس على النائم فيوقظه
كلمات كالماء القراح نروى بها هذا الظمأ

وتبع أراجون هذا الاتجاه نحو التبسيط والوضوح وتحميل الشعر رسالة النضال مع الشعب ومن أجل حريته ، الكثير من الشعراء . وكان للشعر الذى كتبوه وقع بالغ ، إذ تغنى به مئات الآلاف من عامة الفرنسيين .

خطب أراجون فى لندن عام ١٩٤٥ ، فأشاد بشعراء المقاومة وقال : «لم أكن إلا واحدا من كثيرين، كنا نكتب فى ظل تقدير الشعب » . ومع ذلك فإنه كان أبرزهم وأسبقهم بل رائدهم جميعا. وقد أقر له بهذا الفضل كثير من الكتاب قال الكاتب الفرنسى الكبير فرانسوا مورياك عام ١٩٤٥ يصف تلك الفترة فى حياة الشعر الفرنسى المعاصر .

« وفجأة برز وسط الأيقاظ النيام شاعر يتغنى بفرنسا ، يتغنى بحب وطنه الصريح ، فانطلقت ديانا ربة الشعر من مرقدها وأفاقت إلى نفسها ، وقامت لتتشح بهذا الشعر الشعبى فى أجل معانى كلمة الشعبية . شعر من تربة الوطن كنا قد فقدنا سره وسحره منذ أن مات فيكتور هوجو ، فجاء أراجون ليعيد لنا اكتشافه ويداوى به أرواحنا . فهذا الشعر هو الذى أجبر المحرومين واليائسين أن يرفعوا رؤوسهم الخفيضة ويمسكوا بالسلاح فى أيديهم من أجل وطنهم . بعد أن كشف لهم أراجون فى شخصية كل منهم عن بطل نائم .»

* * *

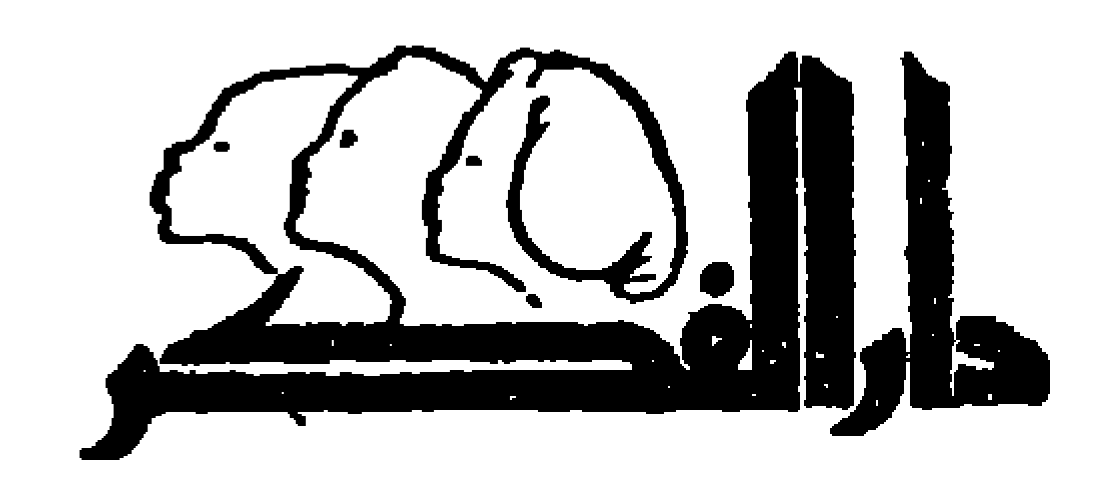
وكان أروع ماسجله الشعر الفرنسى بحق تلك القصيدة التى غنى فيها أراجون لباريس لحن النصر .

لا شىء يشبه باريس وهى تنفجر فى المعركة
لا شىء أصفى من هامتها الناصعة

ولا شيء في قوتها . . لا النار ولا الحديد ولا الفولاذ
لا شيء أصلب من باريس في تحدى الخطر المجهول
لا شيء يشـــــبه باريس هـــذه
لا شيء أبدا قبلهـا خفق له قلبي هـــذا الخفق
لا شيء جعلني أضحك عاليـــــــا
كتلك الضحكة ولا أبـكى صاخبـة
ذلك البـــكاء الذى خرج من أهـــلها
فخـــرا بما نالتـــه من نصر
لا شيء أجمل من الصفحة التي استحال أن تطوى
باريس . . مهـــدي . . حررت نفسها بيدها

* * *

وكان من المحال أن يستعبد شعب أنجب مثل هذا الشاعر . .


دار الفكر

كتب تحت الطبع

- **نيكرا سوف ..**
  لبول سارتر
  مع مقدمة لاليا اهرنبرج
  ترجمة عبد القادر التلمسانى
- **فن السينما**
  للمخرج السوفيتى ورائد السينما
  « بودوفكين »
  ترجمة صلاح التهامى
- **مشكلة فلسطين**
  للمستشرق الفرنسى
  « ماكسيم رودانسون »
- **تحت اعواد المشنقة**
  « جوليوس فوتشيك »
- **قضايا ادبية**
  من رابطة الكتاب العرب
- **خطاب الى احد ضحايا الحرب**
  « حسن الطاهر زروق »
  عضو البرلمان السودانى

رواد الفكر

مجموعة جديدة تصدر عن :



هدفها

نشر الدراسات والبحوث عن رجال الفكر الذين خدموا أوطانهم والبشرية والذين ساعدوا بانتاجهم على تطور العلوم والفنون والآداب .

تتناول دراسات كاملة لسياسيين وعلماء وأدباء وشعراء وفنانين ، ونماذج من انتاجهم .

تضع فى اعتبارها الأول تقديم رواد الفكر المصرى والعربى لنتمكن من أن نبنى ثقافتنا الجديدة بهدى من تراثنا .

تنشر فى الاعداد القادمة بحوثا ودراسات عن « عمر فاخورى – فرح انطون – عبد الله النديم – رفاعة الطهطاوى – جمال الدين الافغانى – عرابى – يعقوب بن صنوع – بافلوف – ميتشورين – ستالين – ماركس – ماوتسى تونج – توريز .. وغيرهم من قادة الفكر ..

١٠ قروش

تحت الطبع :

- **باسم السلام**
  «آرشي جونستون» الديبلوماسى البريطانى الذى لجأ الى الاتحاد السوفييتى يكشف خطط الاستعمار
- **سودانى فى الصين الشعبية**
  عبد الله عبيد احمد بالتعاون مع جريدة الصراحة السودانية
- **الامير وزوجة الأجير**
  عشر قصص من الادب المجرى الحديث
- **الماء العكر**
  مجموعة قصص «سعد مكاوى»
- **المجد للأطفال والزيتون**
  الديوان الجديد لشاعر العراق « عبد الوهاب البياتى »
- **الدولار يحكم بريطانيا**
  الطبعة الثانية « مكرم سعيد » أستاذ فى القانون

ظهر حديثا :

- **فنون الأدب الشعبى**
  أحمد رشدى صالح
- **باندونج**
  عبد الرحمن الشرقاوى
- **مساء الخير ياجدعان**
  مجموعة قصص « بدر...

التوزيع – مصر – دار ال...
السودان والبلدان العر...
شركة فرج الله للصحا...
ص . ب ١٥٢٥ القاه...

